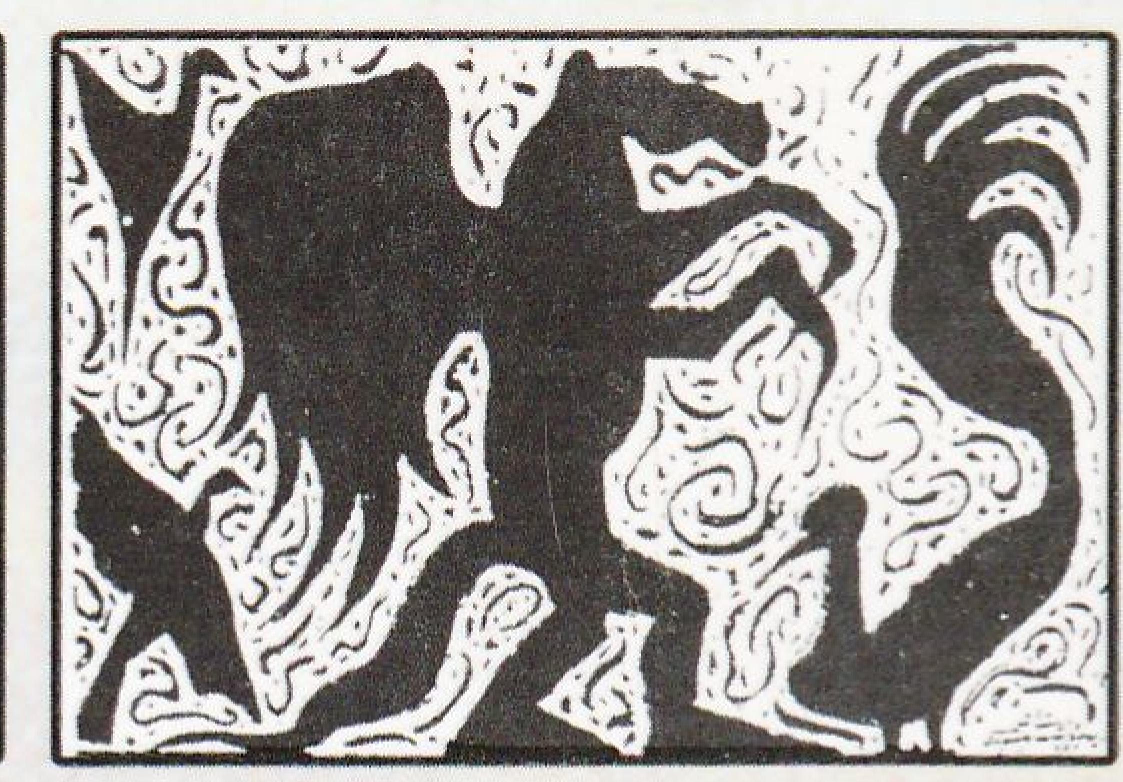







منى عارف



وشوشات الودع



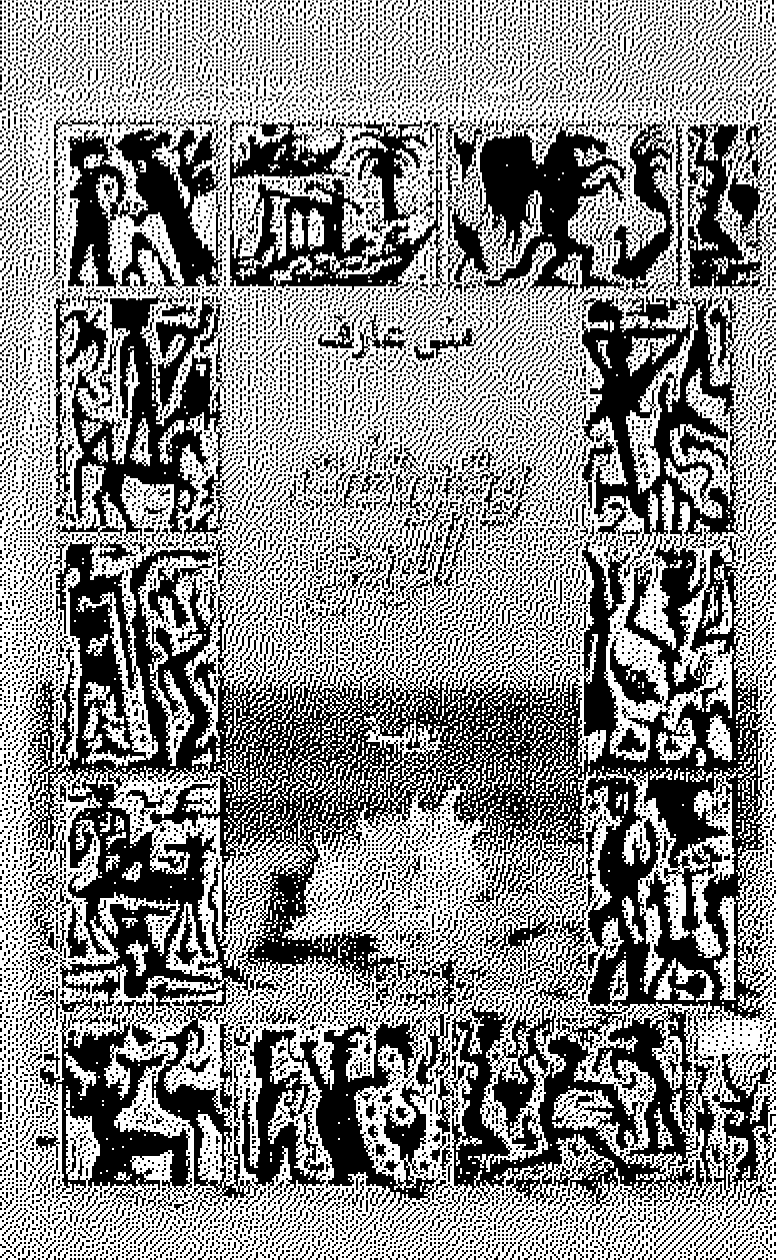

رواية




مركز الحضارة العربية







مركز الحضارة العربية

مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي والعربي، في إطار المشروع الحضاري العربي المستقل.

يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.

يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.

يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.

الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية

مركز الحضارة العربية
٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات - القاهرة

وشوشات الودع

الكتاب: وشوشات الودع
الكاتب: منى عارف
(مصر)
الناشر: مركز الحضارة العربية
الطبعة العربية الأولى: القاهرة ٢٠٠٩

الغلاف
من خيالات فنجان القهوه
مهداه من الفنان التشكيلي:
عصمت داوستاشى
تصميم وجرافيك: محسن عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكترونى:
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ: إيمان محمد
تصحيح: محمد فتحى السخاوى
وفاء عبد الفتاح

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٩٨٢٠
الترقيم الدولي: I.S.B.N.977-291-940-0

عارف، منى.
وشوشات الودع: رواية/ منى عارف.
– الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠٠٨.
٢٣٢ ص؛ ٢٠سم.
تدمك: ٩٧٧-٢٩١-٩٤٠-٠
١– القصص العربية.
أ– العنوان ٨١٣

منى عارف

وشوشات الودع

رواية



الإهداء

"للذى لم يزل قادرا أن يمنح:

أزهاره.. أقلامه.. ودفاتره

للذى سوف يبقى يقاوم

مثلى أعداء هذه الحياة"

منى عارف

شكر وتقدير

وكيف لا أوفيكم حقكم أيها الأصدقاء.

فهل تكفى كلمة شكر واحدة.

كل منكم يحتاج إلى صفحات وصفحات.. وأحيانًا قد تعجز الكلمات

إلى ذلك الذى أرشدنى إلى شجرة المعرفة وارفة الظلال وعلمنى كيف نهتدى بالنور فى "أسفار الموت المخبأ"، وكيف نغزل حياة من "حليب الرماد"، فتصبح أصوات النحيب هى "النشيدة".

لمسة وفاء إلى الأستاذ الدكتور علاء عبد الهادى.

وإلى صاحب ترنيمة "أحرف من شظايا البوح" الأستاذ حسن حامد

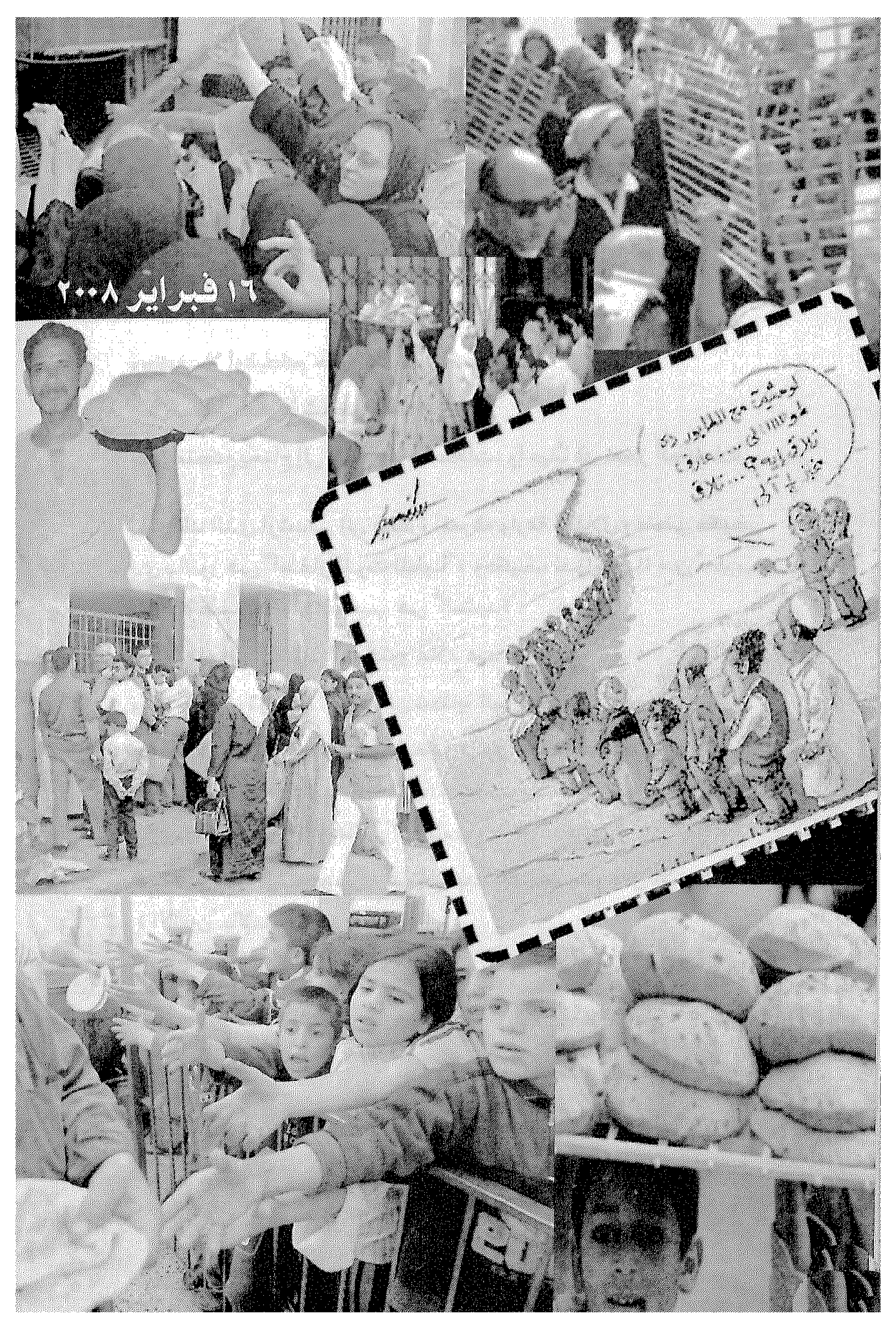
كما لا يفوتنى أبدًا ودائمًا أن أشكر الفنان العظيم عصمت داووستاشى على إهدائه لى غلاف هذا الكتاب: من رسومات خيالات فنجان القهوة وكذلك زملائه الفنانين فى ملتقى الثلاثاء بأتيلية الإسكندرية.

الشكر كل الشكر إلى الأستاذ عبد الله هاشم، وكل الأعزاء فى "ندوة الاثنين" بالإسكندرية.

شكر خاص إلى مركز الحضارة العربية على هذا المجهود المتميز.

وأتمنى مخلصة أن أكون عند حسن ظنكم بى وتقديركم لشخصى.

منى عارف


١٦ فبراير ٢٠٠٨

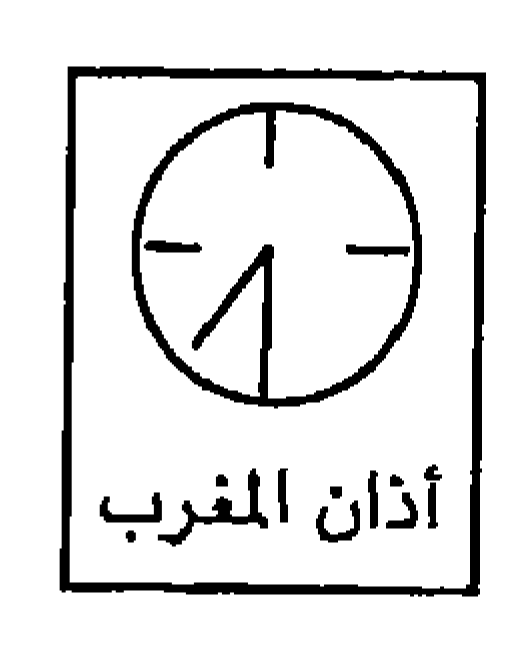
الفصل الأول

فنجان الرؤية

اغمض العين لترى...

فمن ذاق عرف أنك في القلب مقيم

"عاشق صوفي"



كل ما أعرفه عن العالم هو ما قاله لى ذات يوم ولم أكن حينئذ أجيد الإنصات، وأتعجب كيف كان يقرأ عيوني ويمنحنى نورًا ما زال يسطع به قلبي!!

مر ليلٌ، مر نهارٌ، مر عمرٌ، كم من الوقت تبقى؟

وحين نظرت إلى تلك الأجواء من حولي، كان صوته قد تباعد.. ورحل.. وها هو يرتد الصدى لموضعه..

وهأنذا أعرف أننى مهما باعدت أو ابتعدت أنتمي إلى ذلك الصوت، بل أبحث عنه ويكاد ينطفئ الأمل في أن يعود، والحكاية لا تكمن فقط في القيل والقال، أو في قضية الرشوة الكبرى التي انزلقت أقدامي فيها، أو مجرد ترويج إشاعة ما عن شخص أو مجموعة ناجحة، أو تلفيق تهم، أو تلويث سمعة.

الحكاية إنها أصبحت حدوتة كل يوم من أيام حياتنا، جزء لا يتجزأ فيها ومنها.

اللامبالاة تفشت في الكيان كله، نخر السوس العظم، وهن الجسم، تفتت العقل، اليوم أنا، وفي الغد ستكون أنت، وسيكونون هم وهن، وهكذا دواليك، تشير الأصابع إلى أيادٍ أخرى، حذار ممنوع الاقتراب أو التصوير.

تشكلت قاعدة لا يهمها أحد ولا تخشى العقاب أو الردع فوق مستوى الشبهات، تتيسر لهم سبل وتشق لهم طرق مختصرة

للوصول بسرعة مثل هذا الطريق الذي يلتف عن يميني متجهًا إلى العلمين.

من كان يصدق أن هذا الطريق المعتم كان يعج بعربات "الهامر" و"البي أم" و"المرسيدس" منذ أسابيع قليلة، سباق اليخوت في مارينا كان خير شاهد على العصر، عصر منزه عن كل نقص، مرفه إلى أبعد حد، لا تسمع فيه لغو البشر الطبعيين: (أزمة سكر إيه – أزمة رغيف العيش إيه – ارتفاع سعر الزيت إيه – حر إيه – برد إيه) كل هذا مشطوب من التدوين والتداول، هناك عبارات أخرى (هو النهارده مليون دولار دول بقوا فلوس – يا عم ده اليخت بتاعي كلفني ثلاثة مليون دولار)، على رأي المستشار عبد العظيم النشرتي تجده في كل صور الأفراح والاحتفالات والمراسم، رغم خروجه على المعاش من وزارة المالية يعمل مستشارًا للعديد من الشركات الكبرى، تجده مثل فرقع لوز أو الجوكر، ماهرًا في كل فنون اللعب، عينان فاحمتان شديدتي اللمعان، تستهويه دائمًا الكعوب العالية، يشبه الضفدع، أسمر اللون ذا صوت أجش لا يتناسب مع بنيته الصغيرة.

جاءت فكرته في لمّ شمل الحبايب ودمج الشركات الكبرى على هوى المليونير سيف سليمان، صاحب العقل المدبر والمستفيد الأول من الأراضي التي بيعت برخص الثمن في الساحل على عينك يا تاجر.

أناقته تثير دائمًا الدهشة عيناه الزرقاوين تفيضان بالرقة، وله تلك الهيبة التي يتمتع بها أصحاب الأصول التركية، نفس

النعرة، شديد السخاء، ودائمًا تجد حوله شرذمة من مشاهير المجتمع الجديد ممثلين وممثلات، تجار سلاح أو عملة، وزراء، سفراء سابقين، همزة الوصل بين رجال الأعمال في مصر و....

ولتوسيع رقعة الشطرنج يدخل المهندس المشهور صاحب شركة المقاولات الكبرى حسام الزيات الدائرة، ينزل من عربته الليبرتي ويتهادى مثل الطاووس، طويل القامة، شديد الوسامة، معروف بتعدد العلاقات ما بين قوسين مغنيات وآخرهن فتاة الإعلانات التي تحولت بقدرة قادر إلى ممثلة مسرح وتليفزيون وسينما، يمرر معه دوائر أخرى، يلعب العامل النسائي فيها دور البطولة وفي أي لعبة؟؟

ترأس الشلة السيدة/ ليلى فكري المشهورة بـ "لولة" شخصية متسلطة، متسلقة، جميلة مثل بطلة المسلسل الأمريكي المشهور "ذا بولد أند ذا بيوتيفول"، تملك لسان الحجة والإقناع: مثلي الأعلى، ومعها مجموعة من السيدات اتفق الكل مع القطط السمان على إضافة ترفيه جديد، أهو عمل تغيير والسلام في الساحل أوائل أيام الشتاء المشمسة، ويصطف الشباب الكول بشورتات البحر السينييه، كل واحد يتأبط ذراع فتاة أكثر جمالاً من الأخرى، يرفع الهواء ذيل الفساتين القصيرة، وباليد الأخرى يحمل مشروبه المفضل، يتعانق الجميع ويتبادلون قبلات التهنئة (يعني أى تلكيك).

ومن شرفة الفندق الخمس نجوم تصطف كل من السيدة ثناء حرم الأستاذ الجامعى الذي لم نره إلا مرتين لسفره الدائم إلى أمريكا ودبي، ترمق الجميع بنظراتها الثاقبة، وترتسم

على شفتيها ابتسامة صفراء، تربت على ذراعيها بكل حماس مدام نشوى وهى امرأة في منتصف العمر هى الأخرى، ممتلئة القوام، لا تحمل ملابسها أثرًا للغنى أو الذوق، ألوانها باهتة، ذات صوت عال وضحكات مفتعلة وإن دل يدل على وضاعة منبتها، تقف على مسافة منهم ماجى تفرد شعرها الأصفر على ظهرها العارى وتلوح بسعادة غامرة لشخص آت من بعيد ظهر لنا منذ وهلة، وتتطلع من على الرصيف من بعيد امرأة لم يقترب الجمال منها تحاول بكل الطرق أن تشق الزحام الشديد لمجرد الاقتراب أو الوصول أو الصعود إلينا ولو مرة، وتتعثر في ثيابها التي تحمل لمحة الطبقة البرجوازية الريفية.

ها هم صديقاتي الفضليات، أما أنا تناديني لولة، أنتِ اتأخرت كده ليه، تعكس مرآة نظارتها "الدولشى كبانا" صورتي أنا الأخرى، بدلة بيضاء كلاسيكية، وجه ضاحك مائل إلى الحمرة (كويس أنتِ جبتي معاكي الكاميرا، تعالي تعالي، شوفى العربيات اللى بتركن فيها اليخوت شكلها إيه، منظر البورتو روعة والله عمار يا مصر).

(أنا بقى اسمى أميرة، زي الحواديت القديمة، لازم يكون فيها أميرة، يا إما يحبسوها في قصر عالي، أو يرموها في غابة للديابة، أو يأكلوها تفاحة تروح بعدها في تعسيلة طويلة، رغم كده عمري ما كنت قليلة الحيلة ولكن الدنيا دي غريبة فيها حاجات لو قولتها راح تقولوا والله عجيبة).

ورغم أن الأمور تبدو غيز حقيقية مثل طيف علامات الطريق التي غبشها المطر.

وهأنذا على الطريق أفيق من تلك الخيالات على صوت آذان المغرب "يا رب أنا همي كبير ولكن أنت أكبر" وأذكر نفسي (النهاردة إيه)؟

السبت ١٦ فبراير ٢٠٠٨، ياه كل هذا الوقت مر، هانت......

❖❖❖

ها هي تلك الخيالات تعاودني مرة أخرى، ولمحة من صورتي وأنا أمام مدخل الإسكندرية الصحراوي... اقترينا من البوابة، رذاذ مطر خفيف.

مرت السيارة السوداء بسرعة البرق، تقودها امرأة في أواخر العقد الثالث من العمر... هادئة الملامح تنحدر من عينيها دمعة.

يتراقص عقد الودع المعلق في المرآة الأمامية... يتأرجح على صوت المذياع ما بين الحزن والفرح وتسلط كشافات العربيات أنوارها عليه، وتتساءل: هل هو أيضًا فرحان بالوصول؟ بالرجوع إلى ما أسميه هوى القلب.

كل ودعة... تفننت في جمعها من على الشطآن ولكل واحدة حكاية، تذكرنى بصاحبتها، تذكرني بالذي كان: "خايف أقول اللي في قلبي".....

يجب أن أركز جيدًا في طريقي كي أصل بسرعة... ولم العجلة؟ لا أحد ينتظرها سوى تلك الجدران التي سئمت أصوات العتاب، والبكاء، والشجن، واللوم... وسئمت أن تكون سجنًا آخر من سجونه التي نقلها إليها، وكل يوم تحقيق وتثبيط للهمم..

س: هل تتصورين أن بمقدوري أن أترك لك رعاية أولادي وأنتِ بهذه التركيبة العقلية الغريبة.

س: هل تنظرين إلى نفسك في المرآة؟

س: هل تعتقدين أن ملابسك موافقة لسنك؟

وعندما تختلط أصواتنا وأحاول أن أدافع عن نفسي يلجأ إلى أسلوب فظ من التهديد والتنكيل: "إذا أردت أن نستمر أتمنى ألا يرتفع صوتك في أرجاء هذا المنزل ثانية" ويحكم رباط حزامه الجلدي الأسود في حركة لها دلالتها...

ترتعش يداها على مقود السيارة، لا ينسى حتى وهو في المنزل وظيفته: وكيل نيابة، ويتعامل معها على أنها متهمة: في ماذا؟ لا أحد يعلم...

وجاءته الفرصة على طبق من ذهب " اللّٰه يسامحهم "

من أول يوم اشتغلت فيه وهو يحاسبها على كل قرش ومليم تجمعه...

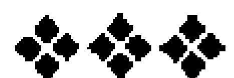
وكيف أن الزوجة المحترمة لا بد أن تشارك زوجها في كل شئ: تعبها وشقاها، (ولا دي نقرة ودي نقرة؟)

غيوم وضباب تحاول أن تهدئ قليلاً من السرعة، لا بد من الالتفات للطريق أكثر، وتحاول أن تسري على نفسها، تتذكر ما يبهجها...

اليوم يعرض في نادي السينما بالقناة الأولى: فيلم بطولة "روبرت ريد فورد" بطل فيلمها المفضل: همس الجياد"horse whispper"

إنها ليست المرة الأولى التي سوف تشاهده، طبعت لقطاته في القلب وسجلها العقل مع أحداث كثيرة أخرى، ربطت بينه وبينها همسات القدر...

ما زال سنا البرق في السماء يضوي، تتأمل تغيرات الجو من حال إلى حال، ثم راحت على مهل تتأمل أجواء الشوارع، أنوار في الأفق تتلألأ، والقلب يبحث في ظلمة دربه عن أمل جديد للحياة لكي تعود الشمعة تشتعل ولا تذوي...



تفتح الباب في هدوء، تحرك سكون الجدران التي تقبع في صمت الانتظار، ولأروقة الصمت ضجيجٌ آه لو سمعتموه.....!

وعلى الطاولة الأمامية كم هائل من الرسائل والمجلات ينتظرها بعضها قديم جدًا وبعضها حديث جدًا تنير مصباح "الأباجورة": تحضن عيونها صورتها هي وهم في البهو...

(الصورة دي أخذت لنا يوم حفل افتتاح المكتب الجديد) يومها أنا كنت مشغولة بتحضير المكان وترتيب القاعة وتسجيل الأوراق في الشهر العقاري، وقفت بعيدًا آخر واحدة في الصف، عوينات صغيرة، أيادى رقيقة، صاحبة نظرة حزينة، أقف وحيدة، دائمًا كنت وحيدة.

لقد كانوا أصحاب عمري ولا همي الكبير.. أوليها ظهري، وأتوارى عنها وعنهم.

تتنهد تنهيدة طويلة، وتخلع معطفها وبجانب كوم الرسائل والمجلات تجده مغلفًا في ورق أزرق ناعم كتاب أنيق وعليه اسم المرسل، وتتعجب بعد كل هذه السنوات، رغم كل شئ ما زال يتذكر عيد ميلادها، وتلجمها المفاجأة.. فتقف ذاهلة يعود العمر إلى الوراء في لحظة، وبيد مرتعشة تتحسسه،

تقربه، وبعيون عادت إليها البصيرة. تقرأ الإهداء:

"إنه ظل قلبي....

أغمضي عينيك سوف تبصرينه داخلك، سوف تجدينه مختبئًا، ربما اختفى إلى حين تاه مكانه للحظة ولكنه دائمًا موجود، ما عليك سوى الانتظار، وقبل أن تنسدل الأستار، سوف يخرج حتمًا إلى النور..."

على الغلاف: ودعة كبيرة محاطة وخيالات الفنجان.

تسرح في العنوان " وشوشات الودع "

تضعه على المنضدة على مضض: سأعود إليك لاحقًا.

ثم تفر الجوابات والجرائد تصدمها العناوين.

يطالعها عنوان فى "المصرى اليوم":

"استفتاء مجلس الشعب على تعديل القانون.

اقر مجلس الشعب بأغلبية ساحقة التعديلات التي اقترح الرئيس حسني مبارك إدخالها على ٣٤ مادة في الدستور المصري...

وعنوان آخر في "الجماهير" عن التجربة الديمقراطية في فرنسا:

جاء نجاح حزب ساركوزي بعد سنوات طويلة من الاجتهاد في كسب أكبر عدد من المؤيدين لأن في ذلك توثيق علاقات مع رجال الأعمال لدعمه في كل خطواته.. ونحن على أعتاب تغيرات كثيرة في مجتمعنا نتمنى أن نتبع خطواته على غرار الآخرين لتصحيح مسار الديمقراطية في بلادنا".

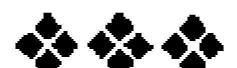
والله كفانا تعتيمًا على الناس، كفانا ضحكًا على الذقون، ماذا يحدث في الدنيا: كل شئ أصبح فيه كذب ولف ودوران، تبحث عن الخبر الذي أصبح يشغلها طوال الوقت، القضية الكبرى قضية الفساد الكبرى وتذكر صحيفة فرنسية أن:

"معدلات الفساد في مصر ارتفعت بين الأغنياء"

وأضافت "لوبون": أن الفساد انتشر بقوة وشمل جميع مستويات الشعب المصري، وقد بدأت بالوساطة والرشوة، كما شهدت الفترة الماضية زيادة غير مسبوقة في الكشف عن جرائم الفساد، وتفسر أن هذه الجرائم لا يمكن أن تكون قد ارتكبت من دون غطاء، لأنه من الملفت أن أغلب قضايا الفساد لمسئولين أو لشخصيات مقربة جدًا من القيادات.........

تزيح الجرائد جانبًا، تفتح الأنسر ماشين:

- القضية سيتم إعلان الحكم فيها خلال ساعات.
- كلنا في البيت الكبير ننتظرك.
- "أنا مش راح أرجع في طائرة بكرة المؤتمر سيمتد لمدة أيام"



كم هي بحاجة إلى دش دافئ، تخلع حذاءها، تدخل الحمام، تفتح صنبور الماء، للحمام طقس سحري، تضع الملح، والصابون السائل أيهما تختار: الذي برائحة الفواكه؟ أم الذي برائحة البحر المنعشة؟ ما زال الماء فاترًا..

تتأمل نفسها في المرآة تبدأ في خلع ملابسها بتؤدة القطعة تلو الأخرى...

تفتح حنفية الماء على آخرها تدخل المغطس.. يتداخل صوت شلال الماء مع صوت دمعها الهادر "علني اتطهر"

ولكم تعشق انسياب المياه على رأسها.. ومع تدفق الماء بغزارة من فتحات الدش التي تنساب قطرة قطرة فوق كل بوصة من جسدها.. فيغمرها بالدفء والإحساس الأمومي بالراحة، عطر الصابون، طراوة الأسفنج، نعومة الزيوت، عبير ماء الكولونيا، كل هذا يجعلها تشعر بالرضا، بالامتنان.

الحمام مثل البحر، يمكنه إزالة الاكتئاب، مشاعر من الصفاء تداعبها.

وها هى المرآة تعكس صورة مرمرية لفينوس أخرى وإن اختلفت ملامحها، يتراقص ظلها على ضوء الشموع المعطرة، ينساب بخار من الورد والمسك والجنزبيل والياسمين والفل يفوح في المكان وفي دفئه يحضنها...

تتدثر بثوب قطني واسع.. تشعل المدفأة، تتناثر منها شرارات النار الصغيرة، تسرح وتتذكر مقولة "جاستون باشلار" (Gaston bachelard):

"Il ne faut q'un soir d'hiver- que le vent autour de la maison- q'un feu clair- pour q'une ame douleureuse dit ala fois ses souvenirs et ses peines"

"تكفي ليلة شتاء واحدة، يصفر فيها الهواء حول البيت، ونار مضيئة، لكي تجعل روحًا متألمة تسرد فيها أوجاعها وذكرياتها"

يؤرق الحزن في عيني سيل متدفق من الأسئلة بلا أجوبة، تدفعني إلى سرداب الحكايات.

بيد معجونة بالآهات تفتح جهاز التليفزيون، ما زالت الأخبار وصور الدمار في كل أنحاء العالم تذاع.

لا بد من عمل فنجان من القهوة.

"تقلب الركوة على نار هادئة، وعيون البوتجاز تتوهج باللون الأزرق تفتح حدقتها، أتأنى في سكب السائل في جوفه، وتبتسم له في مكر وتتمتم: "ماذا ستقول عنا أو عنهم؟" لو بحت بالسر ستقول: "الزن على الودان أمر من السحر"

فيرد بصوت تشوبه السخرية واللوم:

"أحمد الله أنى بأذن واحدة..."

على سطحي يختلط الأبيض والأسود، كنت أحيانًا طريقًا ممدودًا، عنوانًا لسكة سفر فيها طعم الحرمان، أحيانًا سرة فرح، غويشة تعبان.

في قاعي يسكب الحبهان ممزوجًا بحبيبات سوداء عاصرت أجيالاً وأجيالاً، ربما لدقة صنعتى، تتوارثني عائلات، حُفرت اسماؤها على ظهري.

رحلاتي كثيرة ذهبت إلى أماكن بعيدة بل قل ذهبت إلى كل مكان.

يشـار إلـيّ كتحفـة فريـدة، وأصطف علـى رف فـي مقهـى بسـيط أجـاور الأحبـة، والجـيران، تتنـاولني جميـع الأيـدي باهتمام، ربما لصغر حجمي، ربما لأنني لست مجرد......؟؟!!

حامـل الرسـائل، حامـل الأسـرار، حـارس الكنـز المدفون، شاهدٌ على الأخبار، على الماضي، على الحاضر، على المستقبل وإن خان، يرعاني الكل: الفقير والغني، الضعيف والقوي...

"أحمد الله شاكرًا أني بأذن واحدة"

أُرَص فـي أفخـر الصـوان، فـي الحـزن مطلـوب، فـي الفـرح أيضًا أحيانًا.

لا تسـخروا مـني، إن بحـت بالسـر، لا تأخـذوا كلامـي علـى محمل الهزل أو الهذيان: في حديثي "كل البيان والتبيان".

وإن هانـت يومًـا عليـك نفسـك، فتعـال واهـدأ، سـأكون بجانبـك، سـتجدني إلى صـمتك أنصـت، ربمـا أسـري عنـك وأسليك، حتى تحضر إليك تلك التي تحمل في قلبها باقة حب، كتبت حروف اسمك عليها عنوانًا.

أقترب منه لأوشوشه: إليك أبوح بالسر، فيفقد اتزانه، يترنح، يقع، يتفتت على الأرض كالفسيفساء، بقاياي، تتناثر أشلاءً.

"دلق القهوة خير"

أحاول أن أجمعها:

فأجد تلك العيون تحاصرني. كل هـذه الوجوه الضـاحكة تخفـي وراءها كمًا هائلاً مـن...!! انساقت وراء الثروة والنفوذ، أحباء كنا نجهلهم، ولكن في لحظة اختفوا انصهروا وفـي

أقل من غمضة عين انفضت اللمة. ياه القلب مهموم وحزين.

أجد نفسي ألملم قطع "البازل".. تعود لي الرؤية وأعود مع نفسي على مهل، أسترجع الذي كان حتى أتحرر من مشاعر خيبة الأمل لكي أفيق من الصدمة واللوحة أمامي تفتح الجرح.

من اليمين تقف ثناء، على الرغم من أنها لا تتمتع بجمال باهر أو وجه باسم يتلون مثل الأخريات، ملامحها حادة.

لولة: أنتِ لسه مش فاهمة ثناء، دي أهدافها محددة، مصلحتها.. ومن أين تأكل الكتف، تحب أن يتحدث الناس عنها وعن أناقتها وذوقها، ويؤخذ رأيها في كل كبيرة وصغيرة، المهم أن تكسب من كل واحد أى حاجة وكل حاجة.

أميرة: والله أنا احترت في حكايتها، والغريب أنها أجادت دورها وظلت تجاورنى وتظهر لي وجهًا طيبًا ودودًا، وكيف لم أتنبه؟! حياتها الشخصية خير دليل: انفصال عن زوجين وكل مرة تفوز بفيلا أو عربية، أو أرض حتى خواتم الزواج المبالغ فيها تحتفظ بها، تشتري وتبيع، حتى الناس أصبحوا سلعة رخيصة، يمكنها أن تدوس على أي شئ حتى الصداقة وعندما أتذكر كيف أفسحت لها المكان، معنا في المكتب، تأثرت بما تحكيه لي عن وحدتها وانعزالها وخاصة بعد سفر الزوج الثالث إلى أمريكا، تقضي معه شهرين في السنة، تصبح تلك القطة الناعمة وتعود تحكي عنه وعن بخله وبشاعة تصرفاته التي لا تطاق وأفكاره الرجعية.

ثناء: تعرفوا آخر حاجة الراجل عايزني قال إيه أتحجب، شوفوا والنبي التفكير، حجاب إيه وبتاع إيه؟! أنا شلته خلاص.

كما نزعت برقع الحياء منها، وعندما دمجنا المكتب مع مكتب آخر، صار د. عبد العظيم لا يفارقها ولا تفارقه منتهى الوقاحة "عيني عينك"، ومن يحاول حتى مجرد التلميح أو الإشارة يصبح شخصًا غير مهذب خاليًا من التربية والأخلاق...

وما هذا الهراء.. سوء الظن؟! كيف يعلق الناس على النكات الخارجة والإباحية المتبادلة؟

وكيف لم أكن أدري؟! وعندما كتبت شكوى كيدية ضدي ومررتها.. دعمها وساعدها وأرفق الأوراق ورتبها طبعًا صاحبنا.

والغريب أنه لم يكن لي أي علاقة إطلاقًا بلغة الأرقام ويتبادر إلى ذهني سؤال:

هل الإخلاص والثقة بالناس عيب من العيوب؟ هل ضريبة العمل بكد ونجاح تكون طعنة في الظهر؟ ومِن مَن؟

أما نشوى: يا عيني يا عيني، يعني نشوى هي اللي كانت عدلة؟

أين ذهبت الفطنة، كيف انطلت عليّ اللعبة؟

أجادت التمثيل عليها، رغم إنها لم تنهِ تعليمها، وتحاول منذ سنين وسنين النجاح في المعهد التجاري فقط أصبحت بقدرة قادر مسئولة العلاقات العامة بالمكتب لما تتمتع به من حلو الحديث وسرعة البديهة والرغبة في التقدم رغم ظروف الحياة، لا بأس أحيانًا أن تخرج معها بعد العمل تحضر معها الحفلات والعزومات وفي ليالي الشتاء الباردة تذهبان إلى السينما والأوبرا، ارتضت صحبتها، خفيفة الظل تضحك من

كل شئ وعلى كل شئ وأي ضرر في هذا؟! تجاملها في شتى المناسبات وتساندها، كانت ترى قساوة حياتها، بل وأحيانًا تأخذ عملها وتراجع عليه ولم تكن تدري أن بجانبها عقرب ينتظر أن يلدغها.

نشوى: لماذا يحبك الناس؟ لكِ في كل مكان شعبية كبيرة.

فكانت تجيبها: الفضل من عند الله.

تشتعل النار من صغار الشرر، تصيبنا وتصيبهم بكل الضرر، والكلمة التي ينطقها اللسان يصبح من الصعب أن نستعيدها مرة أخرى خرجت أحرف كالسهام ولم تعد.

وعندما أتذكر ما فعلته معي أصاب بالغثيان...

الصدفة وحدها خدمتها عندما قابلت العميد فؤاد زوج بنت خالتها، يعمل في المخابرات، وله علاقات واتصالات "ألم تكتشفي بعد الوجه الآخر لنشوى" لقد اعتقدنا أنك تعرفين حكايتها وكيف أنها تتردد على بيت أحدهم إنه زوج صاحبة شركة الأغذية التي قمت بتغطية الدعاية لها في شم النسيم، لقد حكى هو عن تفاصيل تلك العلاقة لكل أصدقائه في نادي اليخت، وكيف ربطته بها علاقة لها طقوس خاصة!!!!!

فيحمر وجهي ومن يومها قررت أن أمتنع تمامًا عن الخروج معها... وأقلل من الاتصالات إلى القدر الذي يفي بضرورات العمل..

أثار تحفظي معها كراهيتها ولا تريد أن تدعنى وشأنى، هل الصداقة بالعافية؟؟

أصبحت تختلق الأكاذيب عني وتتحدث لكل معارفي وأصدقائي: " لقد أصبحت غريبة الأطوار؟ "

ألا تجدونها مريبة بعض الشئ، كأنها تخفي شيئًا؟؟

تحتشد التفاصيل وتتوالى المواقف حتى نصل إلى حائط سد يشبه حائط المبكى.

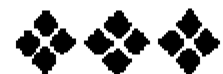
ما كنت أتخيل أو أتصور، أن تكون كذلك وتستنكر أمام الجميع تلك الحرية التي يمنحها إياي زوجي رغم أنها لقربها الشديد مني تدرك ثمنها؟

ما زال يضئ رقمها هاتفي النقال، ويبدو أنها فطنت إلى أنى فهمتها وأنني قد أدركت فعلتها فما كان منها إلا أن تتصل بزوجي تختلق له الحكايات عني.. وتعزز في نفسه الشك من ناحيتي "أنا يا سيادة المستشار أريد مصلحتها"

تتسع أكثر فأكثر بيننا الهوة.. وتتعاقب أرقام التليفونات في منتصف الليل عند الفجر توقظنا وتقلق راحتنا..

اخترقتني واخترقت جدار عزلتي ماذا أقول لكم عنها، تشبه كتلة الشر المتحركة خطط ضحلة تؤدي إلى جروح عميقة، تحوم حولي نيرانها المشتعلة تشعل النار في كوم الرماد، كلما هدأت مشكلة تبحث لي عن غيرها، تختلق المعوقات في العمل، تدعي فقد الأوراق التي استأمنتني عليها، ألمح في عينيها شرارة الغل، اللهم أحفظنى منها.

واتمتم بالدعاء وأستغفر الله العظيم.



العصفور يستطيع أن يختار الشجرة، ولكن الشجرة لا تستطيع أن تختار العصفور، من منا يستطيع أن يختار قدره.. مصيره أو حياته؟؟

أشياء كثيرة مما نحياه تمضي في الداخل، يوميات الحزن والآلام معقودة اللسان.

تصبح حاجتنا الأولى إلى العودة إلى أصل الأشياء.. إلى لحظات الأمان أكثر من ملحة.

وهكذا أجدني أقترب من قنطرة النجاة، أتلمس في وجه الحكايات صورًا أخرى تروي عطش الروح.

أقترب من المنضدة أحمله بين ذراعي، أجلس...

أفتح الصفحة الأولى من الكتاب الذي ألقي في طريقي هكذا صدفة.

أعود أراها من جديد مثلما رأيتها في الحقيقة تخرج لي من بين السطور مثلما كانت تفعل، تقرأ لي الفنجان وتهديني ودعًا مسحورًا.

يأخذنى سحر الكلمات، وتبدأ أول الحكايات "حكايات وشوشات الودع" وعنوانها "ستوتة".

... " تتمايل ذات اليمين.. وذات اليسار.. "...

وتحط حملها في مكانها المعروف، أو الذي تعارف عليه الناس على شط البحر.

أثناء نزهتي اليومية قبيل العصر على الكورنيش، كنت ألاحظها وصرت أراقبها من بعد، يدنو إليها من كل صوب وحدب أولاد وبنات في عمر الورد.. سيدات في مقتبل العمر.. عاشقات يبحثن في عالم الغيب عن واقع لحلم ربما أو يتعلقن بشبه أمل.. ومضة.. شعاع.. حبل وصل ليصلن أو يربطن به اليوم بالغد.

كنت أتعجب كيف يصدق الناس بعضًا من كلمات الزيف، ويحاولون اختراق ساتر الغيب، وأحيانًا يعشقون السرد، حتى جاء ذلك اليوم واقتربت الشمس في الأفق...

لا زالت ترسم ضحكتها على مياه البحر.

بخطوات واثقة.. أدنو منها اليوم.. تستهويني حالة من الفضول

" هيفاء.. ترتدي زي البدو.. جلباب أسود فضفاض.. طرحة معصوبة على الجبين.. مطرزة بخرج النجف.. بشرة مائلة إلى السمرة"

تَخترقنى نظرة العين الكحيلة كالسهم، يزين صدرها عقد من الكهرمان والفضة، يتلألأ اللجين مع أشعة الشمس

المائلة إلى الرحلة في سماء الغربة.. يعكس ظلال نوره
الفضي على الوجه.. يكسو محياها الجميل بالفتنة والرهبة.
" أبين زين... أبين.. ارمي بياضك يا شابة "
فضحكت.. وترددت ثم وجدتها تمد لي يدها المخضبة
بالحناء.. و"وشوشي الودع" يمكن يحملك سره، للودع
أسرار يا خيه أطلقي لآذانك وقلبك السمع، الودع راح
يحكي " ولا أعرف كيف.. ومتى.. ولماذا؟
استمعت بكل حواسي المرهفة، تشدني رغبة خفية، ربما يد
القدر، وهالني ما سمعت، تعجبت منه كل العجب، يا
ليتني ما كنت جئت ....
زينة وهي زين.. حتى الصفحة العاشرة...

يجعلك في كل خطوة سلامة..

كلمات تأسرنا... وتذهب بنا إلى عوالم أخرى نجهلها

ويا ليتني ما كنت قرأت، ووجدت نفسي أقلب صفحة تلو الصفحة:

أفيق من طقس القراءة، يعلو صوت الدكتافون: "حضرتك تركت أنوار العربية" أقوم من مجلسي متململة، أضعه بجانبي.

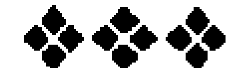
أعود و أضبط القناة الأولى، وأجد تيترات المشاهد: أخيرًا الفيلم راح يبدأ...

منظر الجليد... يفترش الأرض كالبساط الأبيض... ١٥ تحت الصفر هي درجة الحرارة، برد فوق الوصف ورغم ما أشاهده أمامي وما يجعلني من آن إلى آن أرتجف، أشعر بالدفء ينساب من أطرافي، وها أنا على أريكتي المريحة وقد وضعت على كتفي شالاً من الصوف الروز الفاتح، غزلته لي أمي بإبر التريكو، التي كانت ماهرة في غزله لم أتعلمه أبدًا منها رغم محاولاتها ، أجيد فقط العزف على الأوتار، مثله هو لم أحدثكم عنه بعد ، ولم أذكره لصاحبة الودع، أضع أحيانًا ألحانه بجانبي، تحملني النغمات إلى تلك السماوات وتقربني وتنقيني كلما باعدنا أو ابتعدنا، يظل هو هو "عزيز عيني" على قارعة الطريق التقينا وكلما ضاقت بي الدنيا أذهب إليه وكثيرًا ما نصحني أن أبتعد عن تلك الأجواء التي لا نفع فيها ولا منجى من القيل والقال، ركزي فيما هو أهم، فيما هو أجدى، عودي إلى دنيا البشر الحقيقيين، هؤلاء المهمشين فوق الأرض.

دعاية إيه وإعلان عن إيه؟ ألا تنظرين حولك ألا ترين الناس؟

هؤلاء هم الذين ينتظرون منا أن نقترب: نحذو حذوهم، ندافع عنهم، غرقى العبارة، أو شهداء عمارة شطارة، ينادونني من تحت الأنقاض، ولأيام ظللت أسمع صوت نحيبهم، وبكاءهم المرير، وأكاد أتبين صوته بجانبي نبراته تحمل لى كل الآمال:

"أترسم كل الوشوش.. تنقسم بينا المواجع.................."



أغير القناة، ثم أضبط القناة الأولى، يأسرني... المشهد الأول للفيلم:

يبدأ الفيلم بمشهد رائع: حصانين.. مهرين على ضفاف البوح التقيا بعد ظلمة ليل طويل، في غبشة الفجر عند مفارق الوجد نزحا، الصورة غير واضحة، والعيون لا تريد أن تطرف، حتى تثبت الرؤيا أمام القلب أوضح.

مثلهما جمعنا الصمت لثوان، من أين نبدأ؟ هل نكمل ما لم نقله؟! أم سيحمل الهواء طيف لقائنا ويرحل؟

مطفئة السجائر التي على المنضدة أحضرتها من البحر الأحمر.. على شكل ودعة كبيرة، خيل لي أنها تضحك مني وتسخر.. أتراها تسمعني؟؟

أجدني أوشوشها مثلما فعلت غيري كثيرات ولم تفلح لعل الحظ يحالفني هذه المرة وأفلح أن تصل الإشارات إلى الأحبة أوضح، كل ما حولي يحثني أن أحكي وأحكي وأحكي...!!!

إن السر يكمن بين قوس المدى وتخوم النعاس.. ظلال تحكي، تصغى لها ظلال أخرى...!!!

على أريكة وثيرة في صالون أنيق، تتسامر امرأتان على قدر كبير من الأناقة وبعض لمحات من جمال ولى مع الأيام، تضحكان مسبقًا على المقلب الساخن الذي أشربتاه لزميلتهم في العمل، وكيف خططوا هم وباقي الشلة لإحراجها مرة، وافتعال المشاكل مرة أخرى، والتنكيل بالزميلة العنيدة التي لا تريد أن تمرر التوقيعات المزيفة وما زالت:

-قال إيه "عندها مبادئ" تبقى هبلة وملهاش لازمة "دي عقد".

- اسمعي يا لولة، المرة الجاية تروحي معايا "كارلو فيفاري"، منتجع إيه؟ وشباب إيه؟ وعضلات إيه؟ أيادى سحرية، وحاجات راح أقولك عليها بعدين، ترجعلك الحيوية، تخديلك ترويقة كده، تلاقي نفسك ولا بنت عندها ٢٠سنة.

يقدم لهما الخادم على صينية من فضة كأسين بهما شراب بلون العقيق، (قوليلي " هى أخبار جوزها معها إيه؟)

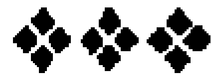
- أنا سمعت إنه لا يطيقها، (يعني الشطارة نغرز الشكوك فيه أكثر وأكثر وكل مرة تفتح بقها نقفله لها، ونعايب عليها، هي كمان مش راح تقبل، دمها حامي، وكرامتها راح تحرقها:

- يبقى كده نضرب عصفورين بحجر، وسعنا السكة لمقصوفة الرقبة التانية... وتبقى الشركة شركتنا...

- زمام الأمور لازم يرجع تاني في أيدينا "آمال.. الأصول أصول"

.. ها ها هأ..

تشعل إحداهما سيجارتها وتتداخل سحب الدخان في الغرفة.



يا أيها الوجع لا تدفعني إلى تلك السراديب الموحشة وسحب الدخان الآثمة.

بخار الساونا.. ودخان التوباكو.. وشرائح التوست المدهونة بالزيدة والكافيار.. والنكات التي تتبادلها مع كل من سيف

سليمان وحسام الزيات.. وأرقام الصفقة الجديدة التي أبرمت هذا الصباح في الـ spa جعلته في أفضل أحواله على الإطلاق..

وأمام المرآة يعقد ربطة عنقه الزرقاء.. ويصفر صفيرًا طويلاً، ينقر السكرتير على باب مكتبه ويدخل فاتحًا الباب الفاصل بين المكتب وتلك الاستراحة أو "الجارسونيره" "garconniere" بهدوء:

- مدام ثناء في الخارج..

فيغمز له بعينيه أمهلني خمس دقائق..

يعدل خصلات شعره المصبوغ حديثًا.. وينعمه بالفازلين يرش رشة من البارفان "سيلفر بلاك" ويستعد لاستقبالها وبنظرات متمهلة يتفحصها:

ابتساماتها المتوترة المشوبة بالتحدي.. فستانها الأزرق الضيق الذي يبرز انحناءات جسدها.. العطر القوى الذي أفرطت في وضعه.. تنهدات الأنثى الناعمة وصوتها الناعم الرخيم جعلت صوته يضطرم برغبة جامحة تكاد تلسعها:

- إش.. إش إيه الشياكة دى....

- يعني أهي مش بطالة، صحيح مش حلوة لكن نغشة يادوبك نظرة فابتسامة فموعد فلقاء.... فـ...!!!

تلتقط كل كبيرة وصغيرة، تفهم في لغة المصالح كويس.... يعني صحيح إذا عشقت اعشق قمر..

(لكن أهي شغالة تطري القعدة.. وحبة سنافر تمشي الحال..)

.. ها ها ها..

وبخطـوات رشـيقة لا تـنم أبـدًا عـن أنـه رجـل تعـدى السـتين بمراحل يسحبها من يدها وبأصابع خبيرة يتحسسها.

نـزوات مفاجئة وإنكـارات زائفـة، سـرعان مـا تلتهـب بـذلك الومض المتقطع للذة مباغتة.

- يا عُبد.. وميعادنا عند لولة؟

ويرن صوتها بكل الهزيمة والرعشة..

يقترب أكثر فأكثر.. (شوية كده أنتِ مستعجلة على إيه؟)

ويقبض على ذراعيها ويضمها إلى صدره.. ويلف ذراعيه حول ظهرهـا ويغمرهـا بالقبـل ويتطـاير فـي فضـاء الغرفـة: الجـورب النيلون.... و...

من تلك الأماكن البعيدة المظلمـة.. فـي بـاطن تلـك النفـوس.. يفـتح الليـل نوافـذه لكـل السـيئات المخبـأة، بـل ويفـترش القمـر أسـرة تتوهـج بحـركـات شهوانية متعثرة لا تلبث أن تجعل أبطالها على عتبات السقوط.

ويعود يسـخر منـا القدر ولا يتفـوه بتلـك العبـارات الـتي تمـرض الضـمير "احـترس فمـن السـهل التعثـر أو السـقوط" توجـد أشـياء تترك نفسها للرؤية بينما تصعد نحو الخلف التي يكون لديها خوف من الصعود الذي يجبرها على التعري بهذا القدر..

كـان لا بـد لـي أن أنتبـه إلى تلـك المـرأة، بل بعـض التلميحـات كانت كفيلة أن أعود أفك رموز تلك الصور التي تظهر أمامي..

الغبار يتصاعد ويتكاثف فوق الرءوس.

أعود أتابع....المشهد الثاني للفيلم... الذي يدور أمامي:

سحب أخرى تتكون في المشهد: الفتاتان تعلو ضحكاتهما تصل إلى عنان السماء، ضباب، يتقدمان وهما تمتطيان حصانيهما الجميلين، تحاولان اختصار السكة فتسلكان طريقًا آخر، تنزلق أرجل الحصان على الثلج الزجاجي، تحاول الأخرى أن تلحقها بها تمد إليها يدها لتمسك اللجام، من بعيد تأتي شاحنة مسرعة لأول وهلة لم يرهما السائق، حاول أن يتوقف، تنزلقان على السطح الثلجي بكل قسوة، تتدحرجان، تعلو صرخاتهما تدهمهما العربة، وتتطاير شظيات الثلج في الهواء، وتشكل دوائر فارغة.. بقع دماء تكسو الأرض البيضاء.

رنين الهاتف لا يتوقف بجانبي، بل يفاجئ البطلة الأم في مكتبها...

الإعلانات جاءت في وقتها لتلطف بعض الشئ.

أفتح الرسالة المسجلة: "نشكرك على احتفالية السنة الجديدة كانت هايلة"

دي بقى كانت نكتة.. بدأت هزرًا... وانقلبت إلى غم...!!

احتفالية السنة الجديدة رتبت لها من عدة أسابيع وكأنها شهور مرت ثقيلة لا أعرف لم تعاودين تلك الصور الليلة وكأنه فيلم آخر يحدث ويعاد...

الكل بدأ يأخذ مقاعده على المائدة بخلاف أصحاب المائدة المستديرة عهدهم وعهدي ولّى فات عليها قرن، تآكلت تهاوت وأكل عليها الدهر وشرب... "la table de roland" وبعدها جاء "le cid" يصول ويجول في الحكم.

مثل كل المفاوضات كلما كان هناك خلاف كان يجتمع الأمـراء الإسـبان عليهـا للأكـل والشـرب والاتفـاق علـى شـأن كبير مثلنا فـي ذلك اليوم.

لـكـن مـع الاخـتلاف اليـوم: المائـدة مسـتطيلة تجلـس عليهـا واحدة فـي المقدمة، واثنين فـي المنتصف وواحدة آخر الترابيزة.

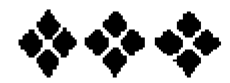
يدور الحديث، تعلو الأصوات، تلقى العبارات بكل ذكـاء، لا بد مـن الإقالـة، أو الاسـتقالة ويبـدأ الكـلام بأصـوات ناعمـة بكلمة من رئيسة مجلس الأمناء إحنا لازم نصلح الأوضاع.

كل عبارة تشملها بحروف المحبة ولكن المقصود؟؟

يبدأ بالفعل سيناريو رخيص... يتراشق الكل بالكلمات مثل السيوف فـي حلبة المبارزة.

يتجـاذبون أطـراف الحـديث وقـد انتـاب الجـو تـوتر ملحـوظ وضيق "هذا لم يكن وقته على الإطلاق"

تـــرص أطبـــاق الســلطات والمــزات، يســـكب المــاء فـــي الكاســـات، تـأتي صـــواني الفتــة بـــاللحم البتلــو، مشــويات مشـكلة، تقـترب الشـفاة المحـددة بـالقلم الأحمـر، وكـلُ يغـرز سكينة فـي اللحم البض.



واتنبه للفيلم:

تكسـو جسـمها الضـمادات، رأسـها، قـدمها، يـديها، تفـتح عينيها بصعوبة بالغة.

أين صديقتي؟

فيجاوبها الصمت.

في مدى الليل يعزف الموت أنشودة الرحيل...

وتتمالك في ألم...... وهو......

ويتكرر السؤال...!!

أين هو "Beauty" ؟

ما زال حيًا

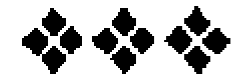
أريد أن أراه...

ومن خلف القضبان الحديدية، تجده واقفًا، يرتعش مبتعدًا، نافرًا، يصهل بهيستريا.

تقترب منه، تناديه، يحذو حذوها، ترى الضرر الذي حدث له، تتقابل عيناه معها: يهاجمها، ترتفع قامته في الهواء، تتهاوى في أحضان والدها، ويعلو على صرختها صوت صرير قفل الباب.

أختنق أفتح النافذة يطالعني على الرصيف المقابل وجه برئ لفتاة ذات عشرة أعوام ترص الودع على ظهر ورقة جرائد:

"عليها صورتان لطفلين من أطفال الشوارع"




١١ فبراير ٢٠٠٨

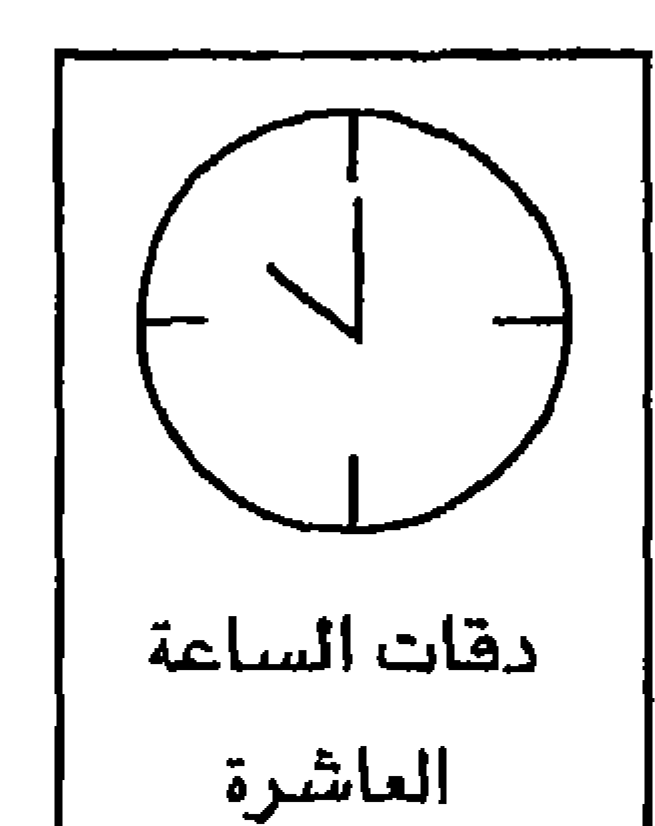
الفصل الثاني

الجريح

إلى الذين قاتلوا ثم ماتوا دون أن ينتصروا

لا أملك إلا المجد والدموع

"جان بول سارتر"



جرحك راح يندمل...

وراح تتحقق أحلامك مهما كانت غالية الثمن.. حلمك وحلمنا بأن مصر تفضل باقية وكرامتها في السما، يا ما كان فيه أفكار لعظماء دفعوا حياتهم من أجلها، يهون الثمن، كلنا إيد واحدة، وزى ما اتوقف المشروع الكندي إياه، راح نحقق الحلم اللى اتأجل ٢٣ سنة.

تعرفوا الحكاية كلها شبكة ماسكة في بعضها.

وكأن هناك قمرًا يغني في شرفة القلب، ويحثنا أن نضمد رغم كل شئ الجرح، رغم اغتيال أحلى الأوقات، أحلى اللحظات لا تفارقينا.. دقات الساعة تذكرني بذلك اليوم:

وتدق الساعة دقاتها: أشرفنا على العاشرة.

تصطف العربات السوداء الفارهة الواحدة تلو الأخرى كلٌّ حسب لوحته المعدنية رقمين أو ثلاثة أو أربعة أمام القاعة المخصصة لكبار الزوار، والتي تقام فيها كل عام الاحتفالية السنوية، لأهم الشخصيات في المجتمع.

قد تجد فنانات وأميرات، سيدات، رجال أعمال، شخصيات عامة لها أثرها ورؤيتها، مهرجان سنوي وفرصة للمقابلة، وتجديد روابط الصداقة والعلاقات...

تنزل من كل عربة سيدة لا تقل من حيث المركز والجاه والحسب والجمال عن مثيلاتها، وكلُ واحدة تمثل اسم عائلة كبرى أو زوجة رجل أعمال قديم وجديد، ما عاد أحد يشغل باله بأسئلة من نوع: من أين لك هذا؟ ومتى؟ وكيف؟ المهم كل حسب مقامه وثروته!!!

جاليات عربية، جاليات أجنبية، صحافة، إعلام.

تختلط الروائح الباريسية: "الديور" "DIORE" و"الجيفانشي" "GIVENCHY"، وكأننا في عرض أزياء من آخر صيحة أو آخر صرعة كما يقولون في لبنان، وتعلق معاطف المنك في المدخل الخاص.

تؤخذ جميع الموبايلات والكاميرات و أجهزة (إم. بي. ثري) حفاظًا على خصوصية الحفل.

وتجدها تلك التي وثقت يومًا بها، وأعجبت بحكمتها ورزانتها، والغريب أن مشاعري تجاهها متداخلة، ورغم ما حدث معي بإيعاز وتخطيط منها، لا أكرهها وأعني كل مفردات تلك الكلمة، شئٌ ما داخلنا يبقى.

تجدها في منتصف البهو الرخامي، وسط مجموعة من الناس تضحك تنادي بصوت عال، جميلة، أنيقة، وتتحلى بطقم من الماس cartier يثير الصخب الذي تثيره حولها الكثير من التعليقات، تتبادل الابتسامات والقبلات مع هذه وذاك، وتتبادل أيضًا الوشوشات، تلبس قناع البراءة كأنها ملاك، "اتركوا الوداعة للحملان"، ولكن العين أصبحت تراهم وتدرك ما

وراءهـم مـن زيـف وخـداع، وأيـن تختبـئ بالتحديـد قسـمات الشيطان، كيف تختبئ الخناجر ونصالها في باقات التهنئة!!!

تبدأ في أخذ كل واحدة بالأحضان، وتطلب منها دقيقة على انفراد، كل واحدة حسب نقطة ضعفها، تدرس أحوالهم جيدًا، وتستخدم ثغرات حياتهم كنوع من أنواع الابتزاز أو التحالف الضمني، شيلني وأشيلك، والأتباع مع الأسف كثيرات، وعلى الموائد التي غطتها المفارش الحريرية، والشمعدانات، والأطباق الفضية وباقات الورد من امستردام، أخذت كل واحدة مجلسها، يشكلن حلقات.

تلعب دائمًا تلك المرأة من وراء الستار، تؤمن بمبدأ صاحب صاحبه وحتى لو كان يدفعها إلى الجحيم، كنت أثق في ذكائها، ولكنها يالغرابة الحكاية وقعت هى الأخرى دون أن تدري في المحظور، وأصبحت تتزعم لعبة تعتقد أنها تملك مفاتيح أسرارها ولكن للحكايات أسرارًا أخرى، وتجد اسمها يتصدر كل مشكلة تقام، وتؤلف حولها خلية مثل خلية النحل تمامًا... يجتمعن حولها وينصتن بكل اهتمام ويمتثلن لأوامرها في الحال...

وإن اختلفت مع أحد: رجل أو امرأة... يأخذ على الفور تهمة... ويلبس قضية أو شكوى كيدية في محل عمله: هذا دجال!!، وهذا ينفع أن يعمل وظيفة قواد!!، وذاك سارق ونصاب!!، وهذه شخصية منحرفة، وتلك الخيانة في دمها، اللي تغلب به العب به.

"علم اللوع أضخم كتاب في الأرض"

بس اللي يغلط فيه يجيبه الأرض

أما الصراحة فأمرها سهل لكن لا تجلب مالاً ولا تصون عرضًا

"على رأي صلاح جاهين"

ويصبح التدمير والتأليب هواية من الهوايات. وكثيرًا ما يقترن الأذى بإطلاق الشائعات على أمل أن ما لا تصيبه الفتنة تصيبه الكلمة ويصبح عمل الدسائس هو الشغل الشاغل.

تميل لولة على ماجي في الحفل وتسألها بصوت خافض:

-المكياج بتاعي مضبوط.

ماجي: أنتِ زى القمر. وتضحك لها ضحكة ذات مغزى:

- يا ستي حبيب القلب وصل هناك أهه.

فتلجم المفاجأة لولة، وتنظر حيث أشارت لها ماجي، فتجده هناك واقفًا يبتسم لها من بعيد.

ارتبط المهندس صفوت بلولة من أول يوم التقيا، هناك شئٌ ما جذبه إليها، مشاعره تجاهها متناقضة، أحيانًا يحس أنها أمه التي فقدها، وأحيانًا أخرى......

لكن لا، هذا ليس حبًا، وكل يوم يزداد تعلقًا بها، (حتة مهندس صغير في المساحة)، أصبح عنده مكتب وشركة، أصبح لا يرفض لها طلبًا، وهي بالمقابل ارتفعت به إلى الطبقة العليا بسرعة الصاروخ، وها هو ذا يتلقى الدعوات ويتهافت على مجلسه الكثيرون والكثيرات.

أشارت فضوله صاحبة الشلة الجديدة، تعرفوا مين؟! لن تصدقوا، تلك المهمشة التي تقف دائمًا آخر الصف تحاول بكل

الطرق أن تدخل إليهم وتصبح منهم، تبدو له مسكينة، يحس تجاهها بنوع من الألفة أو بالأصح التجانس، هما من نفس الطبقة، وأبدى لها النصيحة صادقة: "تعرفي مين أطيب واحدة"

طبعًا أصبحت لا تفارقني لحظة.

يعدل ربطة عنقه "البربري" ويصافح المستشار عبد العظيم الذي يسحبه سحبًا ويقول له: أنت لازم تتعرف على سيف باشا.

تقيم السيدة لولة في منزلها كل أسبوع وليمة عشاء، تعزم فيها خاصة الخاصة من القوم، والحق يقال إنها أمهر امرأة في جذب الناس ومجاملتهم، حتى تضمن تأييدهم لها، وتكون لها أحزاب، شلتها، هذا الذكاء المركز للشر يثير أحيانًا الاهتمام، لم أكن أدري، أنها تفكر فيّ بهذه الطريقة: وكيف واتتها الرغبة في النيل مني بهذا الشكل؟؟ كيف تأثرت بأقوال آخرين وأخريات؟

لا يزال القلب يحمل لها بعض من الوفاء.

يخطف العيون والأنظار كم الحلى، وتتلألأ عقود الماس، وخواتم السولتير، كلٌ حسب مقامه، الناس مقامات.

موسيقى ناعمة تنساب:

"quand il me prend dans ses bras/ et il me parle tout bas/ je vois la vie en rose/ il me dit des mots d` Amour/ des mots de tout les jours/ et ca me fait quelque chose"

"عندما يأخذني بين ذراعيه ويوشوش/ أرى الحياة وردية/ ويسرد لى كلمات حب/ كلمات اعتيادية/ يسري فيّ

مفعولها"، أذهب معها، أسافر، وأفصل عن كل الأحاديث، مازال طيفه يشغلني.

وتتعاقب تفاصيل دقيقة تعود إليها الذاكرة.

وأفيق على ملحوظة من تلك التي تجاورني:

- المخالفات القانونية التي حدثت ألم تكوني تدرين عنها أي شئ؟؟ أصحيح هذا الكلام؟؟

أفهم نبرة السخرية والتهكم وينفرج فمها ويأتيني صوتها مثل فحيح الأفعى: تلقي بالتجريح والسموم والمغالطات، حاولت أن أحتفظ برباطة جأشي ولكن هيهات...

لا تتوقف، وعلى الجالسة أن تصمت وترد ببرود وجفاء، الوقاحة تزداد، والتجريح في العرض والذمة شئٌ يكاد يصبح معتادًا.

تبدأ الهمسات الجانبية، الكل يعرف المؤامرة والقصة المختلقة، أشعر بصداع هائل أرتشف الماء المثلج أمامي رشفة رشفة..

وكأننا في لعبة شطرنج هل نضرب بالطابية... أم بالفيل لنقتل الوزير؟

والخاسر هو المشارك في اللعب من أساسه، وعلى الجالسات تحمل الذنوب والضغط العصبي، وترسم على الوجوه ابتسامات واهنة، على الوجوه الملطخة بالمساحيق إلى حد الإفراط، إنها لعبة بينج بونج.

الكلُ يفض يديه من الإشكالات، تدافع عن من؟ أمام من؟ فليتراشق الأخوة الأعداء.

والصبر جميل آه لو تعرفه.

يعلو صوت المطرب المعروف: وتعلو أصوات السيدات بالغناء:

"أحلف بسماها وبترابها.. أحلف بدروبها و أبوابها....

بولادي بأيامي الجاية ما تغيب الشمس العربية...

طول ما أنا عايش فوق الدنيا...

ولكنها غابت....

مثل كل شئ... كلُ الأشياء...

رغم النصر، والفرحة، والعبور، واتفاقية السلام، يوم وفاة جدتي، ومرور السنوات، غابت الشمس العربية، بغياب وجه بطل اختلفنا عليه أو اتفقنا، اختفاء الرمز، للقوة، للزعامة، للثبات، نبكي عليه، ننعاه، نرثيه، نحمله كل الإسقاطات: ما زال حبه يعيش في قلوب المئات!!

انهار أبي تمامًا يوم التنحي، وفقد وعيه للحظات من فرط التأثر ونقل على أثر تلك الصدمة إلى المستشفى العسكري بالمعادي، تهب النسمات، أحلف بدروبها و أبوابها.

العزة والفخر تعلمتها معهم ومعه في تلك اللحظات الفارقة يوم التنحي كان يومًا استثنائيًا فاصلاً، ذلك اليوم البعيد الآن.

بدت فيه مدينة القاهرة، مثل الكيان الواحد، نهرًا خالدًا، الناس تدفقت من الحواري، من الميادين صار الكل في واحد، تحركوا بدافع واحد، كانت انتفاضة لروح لشعب يرفض الهزيمة يؤازر قائده الجريح.. كان البشر أمواجًا متلاطمة في عاصفة أطاحت بأحلامه.

ولكن نعم غابت الشمس.

وظلل الحزن وجهي...

كما ظللت الغيوم الرمادية المشهد أمامي.

❖❖❖

صرخة في القلب تدوي: هل سيقتلوه هو أيضًا؟

وها هو الجريح في المشهد الثالث للفيلم:

أنقتله ونريحه من عذابه؟

هكذا بدأ الحوار بين الطبيبة البيطرية وأم البطلة.....

تتكرر العبارة: نقتله؟

وتحت رخات المطر، تقترب الاثنتان نحو أسطبل الخيل، وقع أقدامهما، يجعلانه يتوتر، تفتح طاقة صغيرة، يتحرك، يخبط بحوافره الأرض، يقترب، تقترب، وبرد الليل يتكتك أسنان الخيل، تتلاقى العيون في تحرٍ سافر.

الأم... والحصان...

وكأن الفجر يصهل في عيونهما..

نقتله؟

بارقة ضوء تظهر كلمحة خلال عتمة اليأس..

تنفرج من ذلك الضباب الذي يعلق بالكلمات فيخرس في داخلنا أقوى الصرخات.. بل ويستطيع أحيانًا أن يحجب عنا الرؤية، تظهر شيئًا فشيئًا، تتضح، تأتينا الفكرة.

نقتله؟

كأنه كان يسألها، كأنها كانت تسأله، حوار صامت، أخوف؟ أم كل منهما يتعاجب؟؟

قلبُ جازع ينبض، يئن، وكأن بينهما قيدًا!!

وكان في العينين تساؤلات، وقفت تنظره، وينظرها، وينظرها وتنظره.

ومن خلال فتحات الكوة يتساقط شعاع واهن.. يضئ لمحة.. من وجهيهما...

نقتله؟

لأ.........

رغم أنشوطة الغرباء، وأكاذيبهم الملفقة، أعود لكي أرحل، أفك رموز الحروف لكي يتعافى الجرح.

أفتح صفحة من كتاب وشوشات الودع:

كما عند المغيب تتباطأ أشعة الشمس الراحلة في الرحلة، كأنها تشفق علينا من تلك الوحشة.. تبدأ صفحات القصة التي أمامي بكلمات شديدة الغرابة..

كان في فنجانها مسطورًا... قلوع جذور من جذور، بكاء شجر الكافور، ذبول زهور في حضن المغيب.. يأتيني صوتها خافتًا، في بعض الحروف، تسمع له شبه رنين رنة الحزن ربما.. رنة شجن حميم.. كصوت ناى يحمل أنين الموال..

ها أنا: حكايتي انتهت قبل أن أبدأها، مات أبواي في حادثة مروعة على الطريق الزراعي، وأصبحت أنا الابنة

دون العشرين، عبئًا تتبادله أيادي المقـربين، أجـبرت عـلى ترك بيتنا الجميل، أُنقل من بيت إلى بيت، بيت عمي محمود تارة، وبيت عمي حسـين، أعامـل أقـل مـن خادمـة وأنـا صاحبة الفدادين. ألوذ من سوء معاملة زوجات العم ومن نظرات الشـفقة وخبـث الأولاد بحضـن شـجر الكـافور والجميز، أركض بين البسـاتين، تـرد عـليّ أوراق أشـجار السفرجل أبحث عن الألفة، أتأمل شواشي النخـل العـالي وتمايل السعف عند هبوب النسمات وأكرر لنفسي كل مـا تعلمته في مدرسة البندر يتملكنـي الحنـين إلى نظـرة أمـي الضاحكة وفرحتها التي لا توصف بي، وحنان أبي وعطفه الشديد لابنته الوحيدة ثمرة الحب العميق.

وأفيق على صوت الكروان، وهو يخترق صمت الليل، كل هذا إلى فراق وأرمى بكل قسوة إلى أكثر أبناء العـم جفـاءً ومكرًا.. ابن عمك أولى بك.. راح تلاقي بيت يأويك...

وعرفت في بدايات البداية معنى كلمة نهاية، وكيف ينقلب الفرح إلى حزنٍ عميق لا ينحسر عن النفس.

يسـاومني كـل ليلـة عـلى أرض للـورث (معقـول تـروح

للغريب وأنت كده زي البيت الوقف.. لاعيل ولا تيل..)
ويصبح التنازل عن أدق الحقوق عرفًا، وأعامل معاملة العبد ويكون إمضائي على ورقة العقد إعلانًا عن أول إلغاء لبند من بنود الرفق، وأتحول إلى مجرد شيء أو رقم من أرقام.. أرقام الصفر..

وكان الحل عند سريان البرد الخريفي في زهوة الربيع

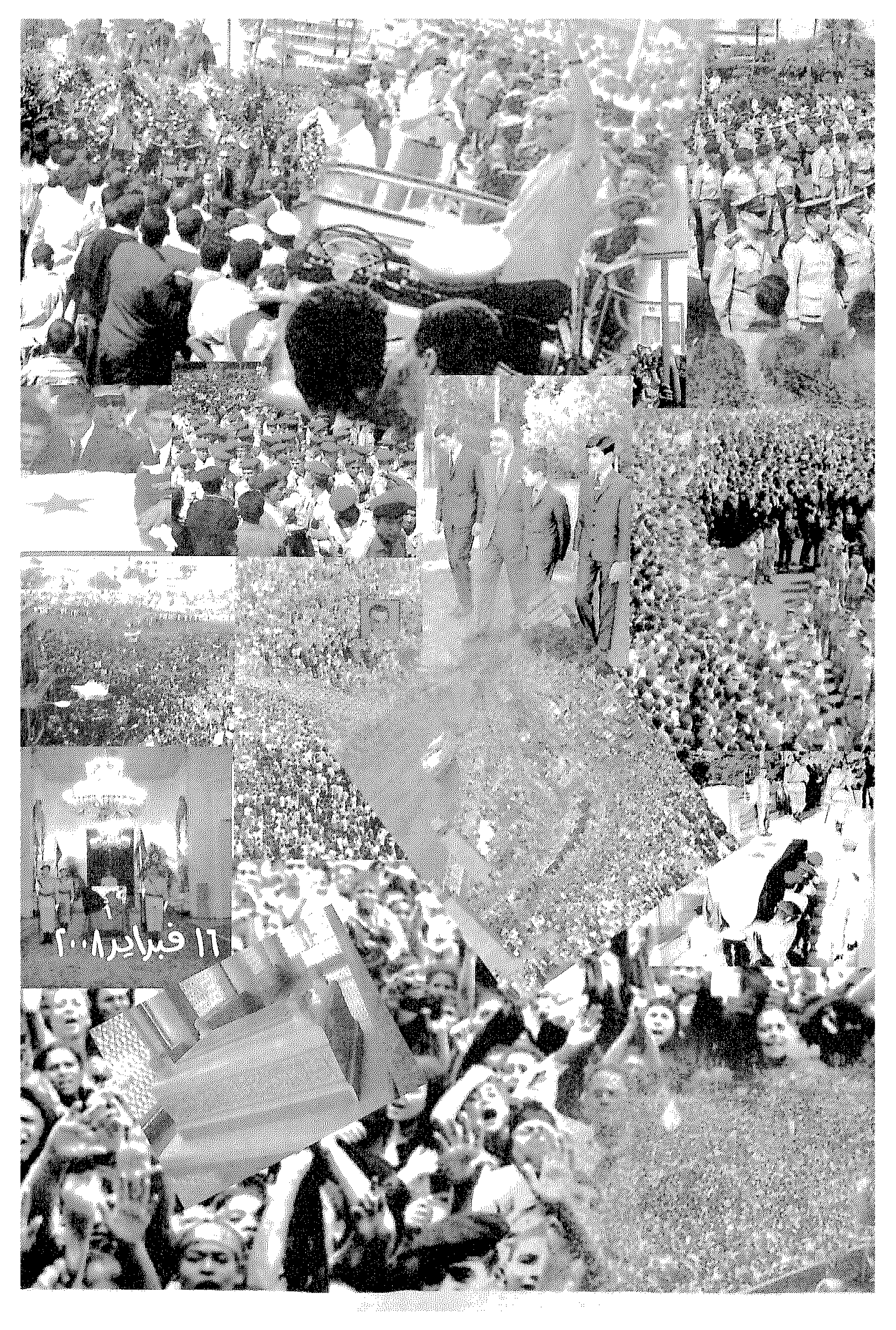
أن أترك كل شيء مخلفة ورائي أقل الضرر.

وتتمتم كيف أمست تلك الفتاة المرحة تؤثر العزلة.. وساحات الغربة.. وتتفنن في إخفاء خيبة الأمل بالبحث عن صور النجاح في العلم.. ربما محاولةً مني للبقاء.. بعد أن استحالت الأحلام وتطايرت مثلما يتطاير الدخان في الهواء.

ولما ضاقت بي الدنيا.. كان بيت خالتي القائم في المندرة هو الحل، عملي ودراستي فقط هما كل القيمة، وعدت إلى نفسي كأني غريق بعد النجاة، أقتنص كلمة رقيقة قيلت خلسة.. وأزرع في أصص الزرع بذور الياسمين في الأرض الجدباء في الحجرة الوحيدة التي صرت أملكها...
تنازلت عن البيت والأرض وسماحة لون الخضرة، أزين

نوافذ الشباك بأستار (الدانتيلا)، وأضيف للماء المر قطرات
من ماء الورد، وأصبحت مسرتي الوحيدة وشوشة الـودع
في كل فجر..

اسمي للعلم.. هو "شمس الأصيل"..


١٦ فبراير ٢٠٠٨

الفصل الثالث

نبوءة العرافة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ
ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨ ﴾

صدق الله العظيم

"سورة طه"

الحادية عشر
بتوقيت جرينتش

"طوبى لمن كان له نثرك..
يا شمعة البراري..
لا يزال وشم قلبك يحتل البساتين".
(بساتين إيه، وحقول إيه، وأراضي اتجرفت إيه)، الفيضان أخذ كل شيء في طريقه.

رائحة شجر البرتقال، كما قضت حكاية إنفلونزا الطيور على أبراج الزغاليل.

تلح على تلك الأقاويل...

تصدمنا الحقيقة، فنلجأ إلى الحلم الجميل..

لو أنها يومًا ترى تلك الحدائق مرة أخرى....

سيكون صيفاً قد مضى وبعده خريف قد ولى.

آخرون وأخريات صرن يغردن على ليلاهن.

أقلب الصفحة، تستهويني الحكاية، وتدور في رأسي حكايات أخرى، وأغرب ما حصل لي تلك الصدفة.

أتابعها... وأتبعها مثلما تابعت خطاي في ذلك اليوم المشمس تلك المرأة:

لأول وهلة حسبتها تطلب حسنة، أبطئ الخطى، تبطئ.. أسرع.. تسرع..

أبين زين.. أبين..

فـأقف مذهولـة، وأنـا الـتي اعتقـدت أن عهـد العـارفين والعارفات قد ولى... تلاحقني...

حلم هذا أم علم؟ ما عدت أدري!!!

منها لله ستوتة وحكاياتها.. أصبحت أحملها في العقل.. في القلب.. وهل يعقل هذا؟

ذهبت لشـراء هديـة مباركـة لابنـة صـديقتي، أخطـئ فـي المكـان ثـم أعـاود البحـث عـن المحـل وألـف وأدور حولـه رغـم أن الشـارع مـزدحم جدًا والوقت يضيق معي: معي موعـد مـع أحـد العمـلاء فـي المكتـب، لا علـى البـال أو الخـاطر، أمـر بجانبهـا ترتدي زيًا أسود فضفاضًا، طرحة زرقاء، عيون شديدة اللمعـة، سوداء مثل قرن الخروب، صغيرة فاحصة.

تناديني باسمي: أتسمر في مكاني، التفت إليها "انتظريني" فتجيبني "أنتظرك منذ أمد".

اشتريتى الهدية وأنا شبه أكلم نفسـي أمـام البـائع، حتـى أنـه ظـل يـراقبني ويراقبهـا مـن خلـف الزجـاج، أجلـس بجوارهـا علـى الرصيف وسط ذهول المارة.

أعطيها كف يدي اليمنى "ارمي بياضك"

أعطيها ورقة بعشرة، استفتاح يعني، وإذا بسيل من الحكـي ينهمر، يمس أوتار القلب التي سكنتها الوحشة ولوعة الحنين، طال الغياب!!!

وصارت دموعي تنهمروغصة فـي الحلق تحاصرني.

وتصادر آهات تائهة...:

- صلي على سيدنا محمد...

- عليه الصلاة والسلام...

- زيدي النبي صلاة.

- ألف صلاة عليك يا نبي.

- قولي إن شاء...

- إن شاء الله.

- خير كثير راح يجيلك ويفيض قولي إن شاء...

- إن شاء الله.

- وحدي بالله.

- لا إله إلا الله.

- ما لكيش كريه يحبوكِ الناس... بشرى عن قريب قولي إن شاء الله.

- إن شاء الله.

- لك قريب في الغربة من دمك راجع بألف سلامة.. قولي إن شاء الله.

- إن شاء الله.

- غيرتي عتبتك والعتبة الجديدة كانت بالدم راح تدخليها مباركة.. قولي إن شاء الله.

- إن شاء الله.

- هو مين... سيدنا الأفندي ده...؟

وتكرر سؤالها مرة ومرات...

- ربما قريبي!!!

فتنظر لي بعين لائمة.. ما تضيقي خلقي معاكي...

ياه على السهتنة... ما فينا كذب ولا لوع...

واللي راح يخون؟؟

- فيه مرتين واقفين وراك من سنين..

مترصدين لحالك وخطواتك..

أخفى عنهم أخبارك ولا تحكي لهم عن أسرارك.. وإياك تذوقي معهم الأديم...!!

منهم حالك ومالك منظورين.. يحفظكم ربنا من العين.. قولي إن شاء الله.

- إن شاء الله.

- يخلف عليك بالذرية بنات وبنين.. قولي إن شاء الله.

- إن شاء الله.

- راح تروحي معاه مشوار بعد خطوة أو اتنين.. قولي إن شاء الله.

- إن شاء الله.

- مقضية.. مقضية حاجتك قولي إن شاء الله..

- إن شاء الله..

وأسألها بدموع العين: حكايتي معاه راح تتوصل وإلا مش مكتوب الوصال فين؟؟

- ما يعلم الغيب غير المولى، (متجاورين، فيه شوية زعل، وراح تعاودي تاني للبكاء والدموع...)

يا أبوي منك منشفة الزيت؟ هاوديه مالك؟ مستقوية القلب عليه؟

فيه فراق.. وفيه لقا.. قولي بنت خضرة قالت لي...

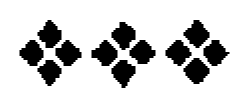
ولو صدق كلامي راح تعاودي تاني..

تبحثي عني وإن كان ما لينا في اللقاء نصيب أمانة تفرديلي حصيرة في جامع الحبيب.. قولي إن شائ الله.

- إن شاء الله.

- إن شاء الله واللي يخون ما له شفيع ولا حنون كل بأمر الله... كل شيء مقدر ومقسوم...

يومها مشيت وأنا شبه تائهة.. ورجعت وحدي ثانية.



شيء غريب لما تظن إنك حبيب.. وإنك من الفرحة قريب

لكن يجيلك سهم ويصيب قلبك وتحيا بيه كالغريب

صدقت يا جاسمي.. إعلان "السي دي" الجديد يتخلل المشهد الرابع للفيلم:

الحياة: حب.. ونصيب.. مرة تصيب ومرات تخيب..

ولكنها أصابت فراسة تلك المرأة في الفيلم الذي يدور أمامي..

يصبح الجواد هو محور الاهتمام وتتشبث الأم بفكرة أن علاج ابنتها سيتم من خلال شفاء الحصان..

وفـي عربتها السوداء (fourwheel) تصحبه معها بقاطرة شحن من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب...

وتقودهما لأيام وأيام عبر الصحاري عبر الوديان فـي الطـرق الطويلة السريعة من نيويورك إلى مونتانا...

ومعهـا تلـك الابنـة العليلـة غير راضية.. التـي تتغلـق علـى نفسـها وتحملها ما لا طاقة لها به.. تصم أذنيها بسماعات طوال الطريق...

وتستمع إلى موسيقى الراب المزعجة.. تتحامل على عكازيها بعد أن فقدت فـي الحادثة ساقها.. ولا تطلب المساعدة بل ترفض فـي كبرياء.. وتصل إلى هناك حيث هو.. بطلنا.. مـروض الجيـاد ويفاجأ بها أمامه وقد أحضرت الحصان لكي يراه بعدما قرأت عنه مـرارًا فـي الصـحف والمجـلات المتخصصـة عـن تلك المقـدرة الفائقة التي يمتلكها البعض.. ويستطيعون التخاطب مع الجياد وترويضهم.. وتدريبهم..

فـي أول الأمر يظهـر عـدم قبولـه بالمهمـة حتـى تنصـاع الفتـاة.. وتطلب منه بنفسها أن يساعد صديقها ويرى العجز واليـأس فـي عينها..

- سأفعل ذلك ولكن بشرط.. أن تساعديني أنت بدورك

- وكيف أساعدك وأنا هكذا؟ وتشير إلى عكازيها.

- عليك تدبر أمورك...

فترد عليه: سأفعل... يعطي لها ظهره ويمضي.........

كمـا أعطيـت ظهـري لتـلك الرسـائل المغرضـة الـتي كانـت تأتيني علـى الموبايل، وإلى كل المكائد التي تعرضت لها فـي الشهور الأخيرة، ولكن يعلم الله تأثرت كثيرًا.

وأشد ما كان يحزنني هذا التغير الذي حدث للكل من حولي، أكان تغيرًا ، أم هي صورة الحقيقة التي توارت عني تحت ظلال الخيالات العذبة.

أدخل الشركة أو المكتب، أجد في كل غرفة اثنين يتبادلان الهمس، مع كل زائر أو عميل تحيط به نظرات ملؤها الشك والريبة.

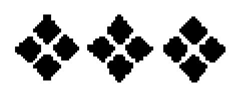
د. عبد العظيم: هو إيه الحكاية ، اشمعنى أميرة اللي تتولى قراءة المشاريع ودراستها وعمل الدعاية ، ما أنتِ يا ثناء أولى.

لولة: يعني.. هي بتفهم في كل التفاصيل ودقيقة ، تفتكر تعمل لنا مشكلة على الحكاية إياها ، وخاصة إننا واخدين قروض بضمانات الشركة.

ثناء: دي راح توقف المراكب السايرة ، تصدقوا ماعرفتش آخذ أي تخفيض من صاحب توكيل العربيات وهي موجودة ، ربنا يعتقنا.

عبد العظيم: أمال حنمشي العملية الكبيرة إزاي ، اوعاكي يا لولة حكاية المصنع الجديد تعرف عنه حاجة.

لولة: خلاص.. خلاص، كل شئ يدبر، وإذا ما نفعش التهويش، نتصرف تاني.



إن ما يخفيه القلب يكون دائمًا أكثر مما نجرؤ على أن نستودعه أحدًا ، أو نستأمن أحدًا عليه ، أو حتى مجرد تكراره مرة أخرى..

يصبح الألم هنا، جزء من أقصوصة جيدة الحبكة وغير محتملة..

مثل قصص كثيرة تدور أمامنا.. تسكن في ذاكرتنا.. نعتقد أننا نستعيدها أحيانًا ولكن هي التي بالأحرى تستدعي رؤيتنا.

تحت الشاشة يظهر شريط إخباري: اغتيال بنازير بوتو..

أغير القناة أبحث عن الخبر في قناة الجزيرة.

وتعود صورتها تقتحم المشهد أمامي، وأتذكر كم كانت امرأة فولاذية تحقق الانتصار تلو الانتصار في الحياة كما في الموت وها هي يتم اغتيالها بصورة غامضة، وفي القراءة السياسية نظن أن الحزب سيتفكك ولكن لا، وستثبت الأيام أن تلك الحضرة الغائبة ستجني بشكلٍ أو بآخر ثمار جهدها ونتائج صلابتها وعنادها، وسيحتل حزب الشعب المرتبة الأولى من حيث عدد المقاعد في البرلمان.

ويظل طيفها عالقًا أمامي... يحمل المدى رائحة عطرها "إنما الموت قنطرة".

ولماذا الآن تعكر صفو سهرتي التي أعد لها منذ الصباح، ما هذه الأقدار؟

تتصاعد ألسنة اللهب في كل مكان.. فلسطين.. البصرة.. لبنان.

انهيار كتل جبلية في مكان قريب من قاهرة المعز..

تصدع في قلب الكيان العربي..

آلاف الضحايا في كل مكان...

حوادث لم يحسب لها حسبان.. تاج محل.. كازخستان.

وأتذكر قوله تعالى: لكل أجلٍ كتاب...

"كذب المنجمون وإن صدقوا"

أول العام اغتيال زعيم من الزعماء، زلزال في تركيا...

ربنا يستر..

أشرب آخر رشفة من الفنجان الثاني الذي أعددته.

ربما يخفي هو أيضًا داخله.. أحلامي، رؤاي.. وآمالي..

وعندما أستعيد بيني وبين نفسي تلك اللحظات أجدني أهمس وأوشوش الهواء: لا تلمني إن لذت بالصمت أحيانًا، وأخفي عنه أيضًا ما بداخلي.

لم يمر علّ يوم مثل تلك الأيام، حائرة، حزينة، مصدومة، جريحة، ولا أحد معي، لا أحد على الإطلاق.

كأن الفرح يفر كأني على موعد مع الأحزان، وخيبة الأمل ترفرف حولي.

أدحرج الوسادة المطرزة بالقطيفة من خلفي وأضع واحدة أخرى، ما أكثر الوسائد في منزلي وما أقل ساعات نومي وأعود إليه ذلك الكتاب الذي يمزقني ينثر أجزائي ويلملم روحي.. فأفر الأوراق التي أمامي..

أعود إلى حكاية ستوتة.. أفتح على صفحة عشرين "قصة الشوق":

.. أبين زين.. أبين..

لمحتها على شاطئ المعمورة، وهرولت إليها، وأخرجت لي من جرابها حرزها.. وأي حرز هذا! قربته من أذني: "أغرم به قلبي.... وسألته ماذا دهاك؟ كيف تقربه هكذا مني.. فأجابها: لا أحتمل فراقه.... ولا أقوى على البعد عنه من أجلك لا من أجلي".

وتابعت بصوتٍ متهدج: أعياه الشوق وغلبه الحنين "أريد أن أغفو بين ذراعيه... يهدهدني في برد الليل وبرد العمر..." تنتظم أنفاسي للحظات بل لبضع ثوان، وأجد بعضًا من نفسي يحضن نفسي نشدت المستحيل في زمن المحال الذي تباع فيه القلوب وتتغير فيه الأهواء وينقلب الحال إلى غير الحال أختنق... أبحث عن نفحة هواء.. مكان.. ربما.. يكون ملاذي فأتذكر بيته الذي أصبح مجاورًا بيتي.. في الحجرة الواسعة يرن صدى أقدامي على الخشب الباركيه.. أدير مفتاح الأباجورة وجدت راحتي هناك وأنسي.. أَتربع على الأريكة التي تتوسط الغرفة.. أزيح خصلة شعري إلى الوراء.. أمشط شعري.. هكذا كان يحبه.. وأتذكر تلك

اللحظة التي قرب المقص.. وقال لي: أضبط لك بضع شعيرات.. تعجبت قليلاً.. وسلمته رأسي.

مرت الأيام والشهور سنوات علينا ظللها الصمت، وكنت أنا دائمة العتاب.. دائمة اللوم.. والارتياب.. دائمة القلق.. ربما تتقاذفني أمواج الغيرة، وتملكتني نعرة الشباب.. كبرياء النساء، وكان هو يحتملني، يهز رأسه في هدوء ويتمتم: يومًا ما ستعلمين كيف يعلو بك الحب ويصل إلى أعتاب السماء.

أتنفس أحيانًا هواءك.. فأحيا في هواه، وأنت تبتعدين.. وتلهين عني بالبكاء..

كنت ألمح عيونه مع أخريات، فتنتابني الغصة، ويزحف إلى القلب برد الشتاء وكان الفراق اللاإرادي..

ملأت حياتي بالأعمال والأنشطة، سيدة كل المناسبات.

واليوم.. تغمر الشمس أرجاء الغرفة، أمارس هوايتي في ترتيب الأدراج، أضع القمصان في ناحية، الجوارب في الأخرى، وفي خزانة الملابس أبحث عن الأشياء التي أصبح من الممكن الاستغناء عنها، أنفض عن بدله الغبار، أتحسس

الجيوب باحثة عن قلم أو أوراق في داخل سترته الزرقاء،
وضعت يدي في الجيب الداخلي، وجدت ورقة بيضاء
مطوية بعناية، في داخلها خصلة من شعري الأصفر..
يا ويلي... ويلي من الودع.....

وأنا التي كنت أخشى مثلها أن أعيش عمري تائهة عنه..وهو منذ سنين وسنين أمامي...

وإلا فلماذا أرسل لي الكتاب؟

وبعدما حدث ما لم يكن في الحسبان أين هو؟

ماذا يقول بعدما قرأ القضية في صفحات الجرائد

اختلاس وتزوير.. أنا؟

الحكاية بدأت وزاد الطين بله لما وقع ملف المشروع السياحي بالغلط في إيدي، وبدأت أتكلم وأعارض، وفي مجلس الإدارة لم أوافق على عمل الدعاية له، يكفي ما كتبته كل الجرائد، ومعروف جدًا أنه يؤثر بالسلب على المصلحة العامة.

واحنا مستفيدين أيه من التعتيم عليه؟

سيف سليمان: خلي الجرائد تكتب وتهول، دي أحسن دعاية، كده بقى الأرض راح يرتفع ثمنها أكتر وأكتر.

عبد العظيم: المنتجع الجديد كله أجانب، راح ينزلوا بالطائرات الشارتر من مطار الدخيلة عليه طوالي، وبصراحة ده معمول خدمة للسياحة أدينا بنجيبلهم عملة صعبة كمان.

سيف سليمان: الموضوع ده لو تم، ليك عندي مكافأة كبيرة، يا سيدي مش كتير عليك فيلا في الريفيرا.

عبد العظيم: ولا يهمك أنا راح أدبر الأمور، وكله راح يبقى في السليم.

في صحتك، تتلاقى الكئوس وتهتز لثوان قطع الثلج في البللور.

كنت أبعد ما يكون عن تلك الأمور.

أما هذه الوجوه التي فارقتها.

ماذا ستقول عني...؟ أين ذهب الأحبة؟

وإذا به يرسل لي رسالة واضحة:

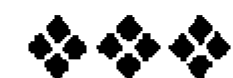
(تلك الأقنعة من الأفضل أنها وقعت الآن أحسن من لاحقًا!!!)

معه خطف قلبي في ثوان، وسكن هناك في ذلك الجوار، أسلمت عقلي، فأصابني إلى الأبد الدوار، أتلمس إشارة أمل... خبر يصبرني.. يبشرني بلحظة وصل.. فإذا بي قد دخلت في لج بحر مهول ليس له قرار ولقد رضيت بقضاء الأيام.

لا تلمني:

عندما لا أفكر فيك فذلك لأني مشغولة بك في أحلامي، وعندما أشغل عنك وتتقاذفني أيامي، فلأني غارقة بمناجاتي معك، وعندما أفيق أجد الفراغ يلقاني، ولأني غارقة في هيامي، أُخزن داخلي بعضًا من اللمحات، ربما تصبح ذكرياتي معك زادًا وزوادًا.

وعندما لا أهمس للودع مثل بطلات تلك القصة الحالمة ويتوقف كلامي.. فذلك لأن الموت وحده قد خطفني...



كلمات العشق تلك أحفظها.. وفي ثنايا القلب أخفيها.. بل أحيانًا أغلق عليها..

مثلما أغلق علينا الباب في قاعة الاجتماعات ذات المقاعد الجلدية الوثيرة، لحسم النزاع القائم في الشركة بيني وبينها، تلك التي ادعت أنها الأحق بالترقية، تلك التي أذاعت عن المغالطات، والتسيب وضرورة إيقافي، والتحقيق معي، والتي فجرت على حد قول البعض قضية الرشاوى، والإمضاءات المزورة.

اقترح اثنان من أعضاء مجلس الإدارة.. وقد عرف عنهما الحكمة والاتزان والهدوء، والحق، أن تكون الجلسة سرية: ينصرف الكل، وبقيت أنا وهي، وهما، انقسمت الشركة وموظفيها ما بين مؤيد ومهاجم، ما بين تأويلات عن أحقية من بماذا ولماذا، وحتى تستريح كل التساؤلات وحتى لا نستخدم أسلحة رخيصة، يكون الثمن فيها سمعتنا كشركة محترمة، أشفقت على نفسي من نفسي أن أتدنى، وأن يكون المركز والمقعد هو الهدف الذي يطغى على كل المقامات.

وأحسست إحساسًا غريبًا لم ينتابني أبدًا، بأني أمام اختيار حقيقي واختبار من الله سبحانه وتعالى: وإذا أخفقت ولم آخذ حذري، سيسخر الكل مني وسأجعل الشيطان يضحك "فاركًا يديه".

سكينة نفسي، ونقاء ضميري، هما الأهم: فتوازنت مع نفسي، وأرحتها من عبء تحمل اللعنات..

ومجرد فكرة أني ظُلمت، لم تراودني فقدمت استقالتي، والغريب أن الجميع استراح عندما تنازلت وأنا صاحبة الحق، عن المستحقات والقضية ورد الشرف، تركت مكاني بعد سنوات من الجد والاجتهاد بدون أسف أو ندم، وكأن عبئًا قد انزاح عن كاهلي.

وكأن الأمر مفروغًا منه أن يسلم المعتدى عليه ويبتسم وهو يتلقى الطعنة ويرحل، وتبكي تلك التي خلتها يومًا صديقة أمامي بحرقة، وتدعي آلاف القصص والأكاذيب، وبعد أن أفسدت صورتي تمامًا أمام الكل، انظر إليها بكل إشفاق وازدراء، كيف يتحول الصدق إلى بهتان.

يا وجه الحكاية أليست للوجوه الأخرى أيضًا حكايات.

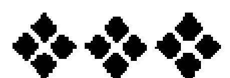
منذ لحظات علت في أرجاء القاعة أصواتهم، وجاء التفاهم على تقسيم السلطات، تقسيم الكعكة، تفتيت القوة، تشتيت الرؤية، تصدع شعار الأمة: "الاتحاد قوة".

يفتح أحد الموظفين الباب: سمعت الخبر؟ ويسارع بفتح جهاز التلفاز: قناة الجزيرة: غزوة وكالات الأنباء "فتح وحماس".

استشهاد ١٧ وإصابة ٥٥ فلسطينيًا في عدوان إسرائيلي على غزة... حماس تهدد بالرد وعباس يؤكد أن الشعب الفلسطيني لن يصمت..

تصريحات أخرى: المجزرة الإسرائيلية هي أولى نتائج زيارة

الرئيس الأمريكي جورج بوش للمنطقة والرد سيكون باللغة التي تفهمها إسرائيل...



أغمض عيني للحظة، أنفض غبار الذكرى، أعود لأشاهد بكل خلجات القلب المشهد الخامس للفيلم: مساحات الخضرة، والطبيعة الساحرة تخلب الأنظار، المشهد أكثر من رائع يخفف رويدًا من وقع المأساة، يتفق البطل والبطلة على الالتقاء في الفجر وتعاود البطلة الأم امتطاء الخيل بعدما انقطعت لسنوات بحكم انشغالها بعملها عن كل شيء أحبته في صباها.

خلال الأشجار يتخذان طريقهما، في تلك الزرقة التي ينيرها ضوء الشمس الذي يغشي البصر.

في تلك الأرض المنبسطة: تل ممتد في خط الأفق، لا يكسر امتداده إلا عدد من أشجار البلوط، أكثر مما يمكن أن يحصيه المرء، عشب ينبت، وسماء صافية، وشوق إلى الماء، إلى مكان للاحتماء.. ركن آمن سكن.

تتفتح زهرات العشق، وتلتقي العيون على استحياء..

تتلامس الأيدي في ألفة دافئة كل شيء واضح.. صادق.. لا يحتمل كلمة رياء..

يبدأ كل واحد منهما يحكي للآخر، ويستأمنه على قلبه، الجوادان يصغيان بكل اهتمام..

وفـي مكـان أعلـى التـل يترجـلان، وعلـى ضـفاف الـبحيرة ينعكس ظلهما..

يحكي لها عن زوجته عازفة الكمان: كيف أحبها وكيف كان يشعر بضيقها من حياة الريف، وكيف كانت تشتاق إلى حفلات الأوبرا.. وصخب المدينة.. وكيف أدارت رأسها العروض وسعت وراء الشهرة والأضواء.. وربما رجل آخر.. وكيف أنه جعلها بملء إرادتها ترحل.. تفر على الحرية ومنحها حق الاختيار.. بدون النظر إلى نفسه حتى ولو لحظة إلى الوراء...

ولا شيء أكثر حزنًا من أن نتظاهر في الحزن بالمرح.

في الحب ليس هناك ربح ولا خسارة، وليس على المرء أن يهرم لكي يكتشف السير في الطريق الصحيح، مثل شلال المياه لا ينسى طريقه أبدًا يعلم أين يصب.

وربما الوضوح يكون أرحم كثيرًا من السكوت عن الذي لا يقال.

كم هي أليمة تلك الوحدة... ولكن ألا يملأ أمسيات العشاء الباردة ثرثرة أولاد أخيه حول المائدة..

دفء العائلة، عشقه للخيل، واعتناؤه بالمزرعة من أجل الكل، من أجل ما ينتظره منه الآخرون، وكيف تعتمد حياتهم بشكل كبير عليه.. وكيف أنه تعلم من الفقد ألا يشتهي شيئًا أكثر مما قد كان.

- أتكتفي حقًا بكل هذا؟

- أو ليس كل هذا كافيًا للإرضاء!!! وأنت؟

- بعد مرور الوقت ندرك أحيانًا أننا كنا نريد شيئًا آخر طقسًا آخر.. وإني قد قضيت عمرًا ضائعًا في انتظار ما لن يكون!!!

منذ أمد بعيد لم أعد أدري حقًا ما أريد... لديّ ابنة رائعة وزوج هادئ الطباع....!!!

- والآن ماذا تتوقعين؟

فتنظر له وعلى وجهها ابتسامة مشرقة.

ربما غدًا جديدًا، وربما الغربة تأتينا من نقطة عدم الاكتفاء...؟؟

لم نعد غرباء...

يركض الجوادان في صمت يعودان من حيث أتيا ولكن يحملان شخصين جديدين قلبيهما سكنتهما سماحة الصفاء... وصمت البراري، وخمائل النقاء.

"إن بحت بالسر لا تقل هان... ولكن قل نتناسى أحيانًا"

السماء تتلون بألوان شتى وغروب الشمس يتصدر خلفية المشهد، حمرة دافئة تغمرها وتغمرنا، أسرّ كل منهما إلى الآخر، لا يقطع حبل الوصل إلا حفيف الأشجار وصوت تهشم الأعشاب الجافة تحت أقدامهما، وترى الرياح قد بدأت تحكي أنشودتهما في كل الأنحاء، وتأتيني وشوشات الأصداء مثل طائر مغرد يعزف وسط التوت البري موسيقاه.......

ويتردد في صمت الليل شدوه:

"ما أسعد أن يجد الإنسان نفسه حتى ولو مرة، وحتى ولو كانت لحظة هي كل العمر".

تصبح سكينة المعرفة أكبر تقدير.. تصبح تذكرة النجاة من المحنة يبعثها إلينا القدر كمنحة، واسمع في صمت الليل صوته: "طبطبة"

تتضح لي الصورة شيئًا فشيئًا، رغبة نشوى الأكيدة في إبعادي عن المكتب، تغيير المساعدين، والسكرتارية، تمرير الأوراق على عبد العظيم ولولة أولاً.

اجتماعاتهم المغلقة، اختفاء الكثير من الدوسيهات، وفي اجتماع مجلس الإدارة أفصحت عن رأيي بكل وضوح، لا بد من عمل أرشيف للمكتب، وجدولة الميزانية، وتسديد قروض البنك، وفحص عقود الأراضي الجديدة بكل دقة.

ثناء: سأراجع الأمر معك يا عبد العظيم.

لولة: إحنا الأوراق كلها سليمة مائة في المائة، وسأمررها عليكي لتوقيعها.

وفي رواق المكتب تلتقي ثناء بنشوى: هي إيه الحكاية، شكلها راح تفضح الدنيا، ربنا يبعدها.

لم أندم يومًا على شيء، لأن الندم يعني أحيانًا قبولنا الهزيمة، خرج الأمر من يدي لم يعد ملكي وحدي، وأدس الملف في حافظة أوراقي.

أعود إلى القراءة وأفر صفحات الكتاب يستهويني العنوان: تلك القصة في صفحة ٤٦ "النديم" الذي لم ير غير العتمة تحت المصباح:

وتبدأ سطور الحكاية:

.. منذ أن اختفت ستوتة من شاطئ المعمورة والمنتزه، ولا أحد يعرف مكانها، يوم.. يومان.. بت أبحث عنها في كل الشواطئ التي تزدحم بالمصطافين، ربما تكون قد ذهبت إلى الساحل...!!! ولم لا؟ ستقضي الأسرة عطلة نهاية الأسبوع هناك: تمنيت أن أجدها.. وكأن السماء كانت فاتحة أبوابها، رأيتها على شاطئ الهانوفيل تسرع الخطى، فاستوقفتها، وأشارت لي متوجسة: "بلاها اليوم.. الودع شايل كتير.. مهموم.." وكلما أمسكت بكفي واحدة تختار لي واحدة أخرى حتى صممت واخترته.. نظرت لي وقالت: أنت اخترت قدرك.. أنا ما علي لوم.. قربته مني وهمست إليه: "بيننا قَدرٌ مكتوب" فأجابني بصوت ساخر لاذع: "ومن تكونين أنت حتى تحكمي على المقسوم؟!" دعي شبه مواساتك لغيري، ولا تحركي قلبي الذي اعتراه الوجوم"... أحببتها بيني وبين نفسي، ولم أطلع على هذا السر سوى النجوم، وصرت أراقبها عن بعد.. تقترب.. أبتعد.. تبتعد.. أقترب.. حتى صارت المسافات بيننا كبيرة والاختلافات واضحة.. وعبارة كانت دائمًا وأبدًا تخنقني

"أنا فين وهي فين"؟! صـورتها وسـط أخبـار المشـاهير.. تقـف دائـمًا في الصـفوف الأولى.. لهـا حضـور وآلاف المعجبين. وبدلاً من أن أقترب مـن دائرتهـا، صرت أبتعـد شيئًا فشيئًا حتى تلاشت ملامح وجهي من أمامها، وتباعد صوتي، ولم يبق بيننا سوى بضع كلمات مجاملـة في المواسـم والأعياد، ننتهز المناسبات، تحاول أيدينا أن تتلامس وسـط آلاف الغيمات، وازددت حنقًا عليها، وعلى ظروفي.

ما عدت أحلم بالمستحيل بعـدما صـار ماضـينا الممكـن حلمًا، والأحلام على جناح اليمام تطير.

لما رأتني بعـد سـنين وسـنين، أسرهـا الحنـين إلى ذكـرى وعيون في الليل تهيم، احتفت بمنمـنمات عشـقي.. حبهـا القديم.. وصرت أرخي لها الحبل، وأفتح لها أبواب الـود، أراوغها تارة، أجملُ لها الجحيم، وأسخر منها، أنثر حبـات الملح على رحيق عسلها، وكانت تسكت، وتنظر إليّ بعيون أعيتها الحيرة ما بين الشك واليقين. أين أنت مني؟! وأيـن أنا منـك..؟! كيـف ضـاع فـي غياهـب العمـر الحبيـب الأمين؟ فطنت إلى حيلتـي، وضـاقت مـن تحمـل كلـماتي

اللاذعة وفرت إلى واديها المسكون.

أقسى من لدغة العقرب... لدغة حبيب له في الروح رنين،
جرح يترك أثرًا غائرًا لا تمحوه السنون، ترن كلماته في أذني،
وقعها كوقع المطرقة، أزحته عني.. ألقيت به.. كدت
أرميه في البحر.. لا أملك سوى رثاء صامت.. ولا أملك
إلا دموعًا.. دموع الشفقة..

يفتح باب المكتب الأنيق الذي يقع في المبنى المجاور للسفارة الأمريكية بجاردن سيتي، يتربع عليه سيف سليمان، ويقف بجواره حسام الزيات.

صفوت: صباح الخير يا سيف باشا، أتمنى ما كنتش أزعجتك.

سيف سليمان: إزعاج إيه يا رجل، أنا حبيت أقابلك في مكتب حسام الزيات، فرصة تتعرفوا على بعض، ونقعد على راحتنا.

حسام الزيات: المهندس صفوت بنفسه عندي، والله أنا من زمان يا راجل عايز أتعرف عليك، سمعت عنك كلام كتير قوي.

صفوت: أنا كمان قالولي كلام كتير.

سيف سليمان: مين بقى العصفورة اللي قالت لك، وإلا تلاقيها الخنشورة الكبيرة، المهم أنا عايزك في حاجة تانية خالص، بما أنك في المطبخ الجواني حاول كده تشمشم على الموضوع إياه وصل لحد فين، الأراضي دي تهمني قوي عشان شركة السياحة بتاعتي، وده زي ما أنت عارف للمصلحة،

تعرف من أول ما ألغوا تخصيص الفيلات في مارينا وأصبحت بالقرعة، قلت في عقلي مين أولى بيها "مبروك عليك عقد الفيلا الجديدة" يا ريت تفضل الحكاية دي بيني وبينك.

أهه عبد العظيم جه، قول مبروك لصفوت.

عبد العظيم: احذر يا صفوت، أنت داخل سكة جديدة وياريت تبعد شوية بشوية عن لولة، لأنها اليومين دول ملطوطة بحكاية، صحيح هي شاطرة وذكية لكن بقت ورقة مكشوفة، ويمكن تحب ترمي القضية على حد، اختفى أنت من الصورة.

صفوت: أنا مش فاهم حاجة.

حسام: أنت طبعًا عارف إن شركة الدعاية ما هي إلا صورة وبرفان لعدة شركات أخرى، تعمل في كل شيء وأي شيء، أغذية، أدوات تجميل، أدوات كهربائية، قطع غيار سيارات، ملابس، إكسسوارات، لكن الشغل التقيل، هو شغل الأراضي والعقارات.

عبد العظيم: لولة لها قضية في النصب والتزوير في مزاد من المزادات.

سيف: ممكن تكون... يعني مظلومة، لكن ما فيش دخان من غير نار... يعني، صوتها بدأ يعلى شوية.

عبد العظيم: ما فيش داعي تقول لها، لحد ما الحكاية تبرد.

تبادل معهم السلام، بعد أن تناولوا الغذاء في فندق الانتركونتننتال، أول صفقة عاملها عازمها هنا، هو عارفها

كويس، حب النفوذ والسلطة عندها أقوى من الإدمان، أصبح هوسًا، ويثقل قلبه بنظرية المؤامرة حتى على المستوى السياسي، ألم يكن وعد بلفور مؤامرة ضد العرب لاغتصاب فلسطين؟ ألم تكن معاهدة سايكس بيكو مؤامرة من أجل تقسيم الشرق الأوسط؟ ألم تكن الحرب على إيران وغزو العراق وبلبلة لبنان مؤامرة لإشعال العالم العربي بحروب أخرى وقضايا فرعية؟ متاهات صغيرة ومعاهدات زائفة تبدو لي القضايا الكبرى مثل الصغرى، ألم تتضح الرؤية أكثر بعد التطبيع والغرض منه اختراق الفكر العربي، وبدأ بخطوات أولى منها تعديل المناهج التعليمية وتشويه التاريخ وطمس الحقائق والتزوير، وهذا ما علمته وطبقته على المستوى الاجتماعي لولة بهدوء والابتسامة لا تفارقها حتى تذكر قول المتنبي العظيم:

"إذا رأيت أنياب الليث بارزة فلا تظن أن الليث يبتسم"

لم ينس أبدًا صفوت شعارات تلك السنوات التي قضاها في الجامعة. أين هو الآن من صفوت؟ رئيس اتحاد الطلاب في الجامعة.. الثورجي الناصري القديم؟

وصار شاعر الفرسان الثلاثة في خبر كان

.all for one & one for all

هو الآن يرقص على السلالم، تدمع عينه للحظة ويشاهد في مدخل الفندق وفود من جامعة الدول العربية.

وطني حبيبي ويتمتم لنفسه في حسرة:

(وطني حبيبي الوطن الأكبر).

❖❖❖

ها أنا أعود أتأمل ما قد كان، تفر من عيني الدموع حتى هي، اتحد الكل عليها.

وحتى دموع الشفقة لم تعد باستطاعتي أن أمنعها..

مرت حياتي كشريط أمامي.. مسرعة.. مثقلة بالأحداث.. بالقضايا.. بالتبعات.. بالالتزامات، لم أرحم نفسي يومًا فكيف كنت أنتظر أن يرحمني الناس، ويتكتمون الأمر الذي لم يعد سرًّا على الإطلاق.

وعلى رأي المحامي: (قال إيه كانت الجلسة سرية) وكيف تكون كذلك والأخبار والتسوية والأنباء قد تناقلها كل المهتمين بالمجال من رجال أعمال ومستثمرين، ولم يهدأ الحال ووصل الأمر إلى إرسال شكاوى إلى جمعية رجال الأعمال، وأصبح الأمر بقايا خبر في جريدة.

ولكن المصلحة من إبقاء حالة من القلق والشوشرة. في أكبر شركة من شركات الدعاية والإعلان..

لصالح من الانقسام؟؟

بدت لي سذاجة السؤال، ألم يصبح الانقسام في كل شيء!!!

اتحدت لولة مع صاحبتها ماجي على أن توسع لها السكة في شركتنا حتى تسترد ما كان، ولماجي حكاية هي الأخرى.

ويلح عليّ سؤال لم أجد له مع مرور الوقت أي إجابة..

ألـيس الجمـال والمـال نعمـة مـن نعـم الله الـتي لا تحصـى؟ ويكـون سببًا للغيرة والحقـد أحيانـًا؟ ولكـن فـي حالتهـا هـي احـترت: جمالهـا حقيقـي لا يختلـف عليـه اثنـان... رقيقـة مثـل الفراشة.. وديعة مثل القطط.. وعندما اقتربت عدسة القلب منها: سجلت ذبذبات أخرى.. طبيعة أخرى..

ربمـا الظـروف وطبيعـة التجربـة هـي الـتي تشـكلنا وترسـم فـي نهاية الأمر ملامحنا.. إني حقًا ما عدت أدري.. هل أحـزن علـى هـذه النعم المهدرة من أصحابها: سبحان الله له فـي خلقه شئون...

أصبحت منذ سنوات شوكة فـي ظهرهـا.. مجرد وجودي فـي المكان يؤرقهـا.. رغم حسن المعاملة التي نتبادلها.. دائمة انتقـادي والتحدث عليّ من وراء ظهري.. ولمـا سُئلت هـل تحبـذين وجودهـا معنـا فـي مجلـس الإدارة؟ أجابـت بكـل أمانـة: إنهـا شخصـية لطيفـة ولهـا علاقـات كثيرة.. وحتـى بعـد المشـكلة الـتي أثارتهـا فـي أحقيتهـا بكـل الترقيـات والمناصـب دون غيرهـا.. بعـد أن عرفتُ كم الإساءة.. قلت وشاهدي هو الله..

قد تكون قد ظلمت بحق ولن أكون معول مـن معاول الهدم لأي إنسـان.. مهمـا كـان.. ومهمـا حـدث منـه معـي.. كفـى ظلـم الأقدار.. وليحسب لي فـي ميزان حسناتي إن كان لي...

والوجه الآخر للعملة، كان لماجي حكاية هـي الأخـرى أدت بها إلى سكة المتاهات وأصبحت غير مرغوب فيها فـي أمـاكـن كثيرة، وتعـزم بالعافيـة علـى أطـراف موائـد عليـة القـوم، حـب

الظهور ولفت الأنظار (غية)، وتجيد تمثيل دور المجني عليها دائمًا، دائمًا هي الضحية ويكفي أنها قد ظلمت في حياتها الخاصة، زوجها د. عثمان عمل على جمع الأموال وشراء الفيلات: فيلا في الكينج، وفيلا في الساحل الشمالي، طائرة خاصة... من فلوس قروض البنك، وفي لمح البصر طار وسافر وخلع، وتزوج واحدة أخرى، تاركًا لها ديون وفضائح وقضايا وأحكام أعلم يقينا أنه قد أسقط في يدها، أي إنسان في مكانها ستنتابه ربما تلك الرغبة في الثأر في رد الشرف في رد اعتبار نفسه أمام الناس، الأصدقاء على الأقل، ولكن على حساب من؟ وكيف؟ خيبة الأمل عند البعض تصبح مكانًا مناسبًا لزرع بذور الغيرة، وأحيانًا الحقد، وتتحول نظرة الملاك الهادئ إلى صقرٍ جارح.

وإنها لا تملك إلا وجهًا جميلاً... (ياه دي ملاك...!!)

وظفت رأسمالها وعرفت إلى أين تذهب وتفرد شباكها وتبكي بدموع التماسيح، تستلف من ده ألف، وده يوقع لها شيكات أرقام بالألوف، "والتعلب فات فات وفي ذيله سبع لفات.."

أول خبطة سمّعت وجعلت الكل يحتاط كانت في زوج صديقتها حسام الزيات، واتفقت مع لولة ونشوى، خطط ومكائد، والحظ محالفهم من مائدة إلى مائدة ومن مكتب لمكتب ومن بيت إلى بيت وتليفونات واتصالات، تتحرك خلية النحل، تمص رحيق زهرة الخشخاش، بكل برود وثبات، بدل ما تبقى الطعنة في الظهر واحدة، تبقى طعنات، وبدل ما تكون الجبهة جبهة واحدة تتحول إلى جبهات، ويتفرق دم

الغـزال، بـين تلـك وذاك، والاسـم إيـه شـركة دعايـة هـدفها المكسب ورفعة شأن العباد، وعلـى رأي إسماعيل ياسـين رحمـه الله: "والنبي سلمولي على من اشترى الترومای".

أغمض عيني للحظات أو أكاد... أقوم أتحرك أصل ثانية إلى المطبخ وأعود مسرعة وفي يدي إناء وسكينة وتفاحة لم أتناول شيئًا منذ الأمس...

يـاه كـل هـذه الأحـداث حـدثت منـذ مـدة غيـر بعيـدة وجـاء قراري متأخرًا بعض الشيء... كان لا بد أن أنتبه للمكيدة قبل ما تكبر الأمور.. وتستحيل رؤية الأشخاص...

لكن هل حقًا هم أناس؟؟ أم كومبارس يقوم بـأداء سيناريو رخيص أمام متفرجين (عاملين "دماغ").

ويُغرز نصل السكين في القلب البريء..

أقطع التفاحة أربع قطع...

مـا زالـت الإعلانـات يخفـي بعضـها كـثيرًا مـن التلميحـات (شقق – مـدن سـكنية – فيلات – حمامات سباحة – ملاعب تـنس وجولـف) الرحمـة شـوية بالعبـاد، علـى الغلبـان أن يتحمـل كل هذا، ما عاد أحد يفكر في نتيجة التبعات..

شريط s.m.s:

- انهيار عمارة مكونة من ثلاثة عشر طابقًا بدون تراخيص.
- اشتداد الحصار في غزة وانقطاع الكهرباء.
- تفخيخ عربة أمام القنصلية الأمريكية في لبنان.

- أين تذهب هذا المساء؟

تبدو أمام عيني الخيالات، خيالات فنجان القهوة، الذي يتنبأ بالمقسوم في كل ودعة من ودع ستوتة أفتح صفحة أخرى من الكتاب وأتبع قصة أخرى بعنوان عروسة البحور.

"هي دي عروسة البحور كان في فنجانها مسطور: صورة لأعماق البحور، لآلئ من فضة، محار من نور بحر الهوى يا ختي مهول".

وجدتها.. تسترح بجوار الصخر، تستمع لسخرية الموج، صفير البواخر، تعد النجوم، وأسراب الطيور، ناعمة.. بيضاء يفترش ذيلها الرمل... أميرة بحق وحقيق.

جاءني صوتها يختزل البهجة والفرح والمرح، تحكي بنبراتها الدافئة: "آه لو يدري؟ أن في جعبتي كل هذا الوجد.. وأني أطبق على أواصر قلبي بيد من حديد" وأوشوش المحار وأخفي دموعي عنه في هذا الوادي السحيق أنثر أكاليل الغار، أغزل له رداءً من الفضة والذهب.. لهما أغرب بريق مثل تلك العيون التي أضاءت لي لحظة.. يومًا.. عتمة الطريق.

أجمع له اللآلئ، وآمل أن أكون مثل أي شيء يصادفه، أو أحظى يومًا بمنزلة الرفيق.. أختزن له أندر العطور.. أندر

الزهور.. أندر الكلمات.. وما أجمل العبارات التي أحيانًا لا تقال.. وما أرق تلك النسمات والعشق يبدأ آهات وأنا أسكن في ذاكرة الغائبات.

عشقت عيني رؤياك قبل أن أراك وأنا التي كدت أختنق في الأعماق.. هائمة في تلك الآفاق أبتعد أيامًا وساعات حتى لا يلحظ طرفك كم إليك قلبي يشتاق.. آه لو يدري؟؟؟

زايدت على عمري لحظات في كل نهار تشرق فيه الشمس.. في كل ليل يسطع القمر.. يرصد فيه الأحلام وبحق السماء التي ترصعها النجوم.. وبحق الفجر.. وابتسامات الضحى.. وليل الغيوم "ترحل حدك أمواج البحر.. وقت الغروب.. وحتى في أحلك الساعات ترفرف حولك روحي أينما تكون"

عاشق البحر أنت.. كم عذبني صمتك.. بعدك.. ولكم أضناني حزنك..!!! قبلت أن أكون أنا الطرف المظلوم واليائس، أضع فوق قلبي حجرًا صوان وجعلت عقلي عليه حارسًا، حتى لا تلامس أحزاني خلجة من خلجات فارس الفوارس وجعلت أحلامي المؤجلة على الهامش..

أنثرها حروفًا في الفهارس.. أسبح بها بعيدًا.

تتشتت أفكاري على شطوط البحور مثل النوارس وأواسي

نفسي" ألا يكفيك أنك وجدته؟؟!! وأنك أحببته حبًا

خالصًا..!!! التقطتها.. ودموع العين تتدحرج مثل حبات

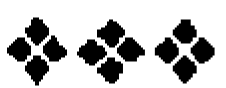
اللؤلؤ.. أحضنها.. أواسيها.

بيننا نسمات.. بسمة حلم ربما.. وركام ذكريات.. تنادي

ذلك الذي لا يعود.. بأحرف تتضاءل.. تغيب.. أناديه..

وأناديها.. وظل صوتي.. يتلاشى في تلاشيها..

أغلق الكتاب بعنف.



(الأمس فين.. الأمس راح.. الأمس كان..)

هذه القضية قلبت موازين حياتي بأكملها، ويمر شريط حياتي أمامي وعلاقتي به هذا الذي يشاركني ليلي وأمسي.. تحول.. لا.. كان من اليوم الأول واضحًا لم يتغير.. أنا التي لم أكن أريد أن أستوعب الدرس..

وأسأل نفسي وأعاتبها ألم تكن بيننا أيام هناء، وصفاء، وحب؟

ألم يكن نصف الكوب ممتلئًا حتى إلى النصف؟؟

وأحس بكم هذا الفراغ، الأمر لم يكن كما يبدو عليه أبدًا أمام الناس شيئًا... وبيني وبينه شيئًا آخر، شيئًا مبتورًا

شيئًا لم يكتمل.

طبيعة المجتمع عاداته وتقاليده تفرض أن يبقى الأمر على ما هو عليه، وعلى المتضرر أن يلجأ إلى القضاء.. أيوه.. أيوه.

القضاة الذين تم سحقهم بالأحذية في ميدان عام.

ودعت المنظمة المصرية لحقوق الإنسان إلى ضرورة استقلال السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية.

وأنا التي كنت أحلم أن يأتي الحق من عند أنصاره.. وظلمني قاضي القلوب – حقا ما عدت أدري؟

اخترقت أسهم الغدر كل مكان..........

كما اخترقت أسهم الغدر جدار بيتي......

وتصاعدت حدة المواجهات بينه وبيني حتى بات وجودنا في مكان واحد أمرًا لا يطاق وآخر محادثة كانت كفيلة بإنهاء كل ارتباط، ويرتفع جدار وراء جدار....

- الهانم مبسوطة دلوقت من الكلام اللي ملا الدنيا والشوشرة اللي اتعملت في كل مكان.. استفدت أنا إيه دلوقت؟ استفدت أنا إيه منك على الإطلاق؟..

- أفهم من كده إنك مصدق اللي تقال؟؟؟؟؟

- مش فكرة مصدق أو لأ.. ده مش مهم.. أنتِ عارفة حساسية مركزي.. موقفي كده بقى صعب طبعًا أنتِ ما فكرتيش فيَّ خالص؟!!

وأغلق الخط بيننا إلى الأبد منذ شهور.. وحقيقة الأمر كانت أبواب القلب قد أوصدت وأُحكم إقفالها منذ سنوات وحتى

هذه المرة – لم يقف بجانبي – لم يراع خاطري البتة..

ولكم أردت أن أرحل دومًا.. وجاءتني القدرة على الفرار، أغمض عيني، والآن أريد أنا أيضًا الذهاب للعيش هناك.

حيث الطبيعة الساحرة، الخيول، الماء العذب يتدفق من شلال، ضحكات الصغار.

أتنفس مثل هؤلاء الناس، أجري وسط الحقول، حافية القدمين، تتطاير خصلات شعري في الهواء، أتنفس رائحة النقاء، أترك مجلسي، أقف أمام المرآة، أسرح شعري خصلة خصلة.. إنها ليلة ليلاء.

وأعود أفتش في الجرائد التي أمامي، تترامى إلى الأسماع وشوشات أخرى، افتقدت ما في الهواء من نقاء.

أجد (مانشيت) عريض في "الجماهير":

الغش توأم الفساد، ثلاثة وأربعون ألف قضية غش تجاري

في ثلاثة شهور في مصر، سلع غذائية، كهربائية، قطع غيار.

يتردد اسم إحدى شركات سيف سليمان.. التوأم يزحف لمختلف المواقع.

تزكم أنفاسي رائحة الدخان، أكاد أشمه وأنا أتابع المشهد السادس للفيلم:

مثلما يتصاعد الدخان من (الماج) المليء بالقهوة الأمريكية في يد البطل روبرت ريد فورد، وها هو ينظر بعيدًا، تأثر بها، لمست أوتار قلبه الساكنة في دعة المسالمة مع النفس لسنوات.

يسحب نفسه من الجمع ويخلد إلى حجرته ويدير جهاز (البيك آب) ويستمع إلى موسيقى فاجنر، ويشعل المدفأة، وترسم في ضوء لهيب النار صورتها، يعود إليها وإليها عاد هو.

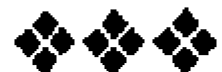
L'amour n est qu'un feu a transmettre; le feu n'est qu'un amour a surprendre

"الحب ليس إلا جذوة نار تنتقل ونورها ليس سوى حبًا يفاجئنا".

إنه الحنين إلى الرفقة مع فنجان قهوة، وإلى دفء صحبة سرت إلى بدنه لحظات، فأصبح حبها يجري في دمه فعاد قلبه إلى الحياة مرة أخرى.

اعتادت مكانها في منزله الريفي البسيط في المزرعة، كأنها عاشت سنوات وسنوات فيه، إطارات الصور القديمة صورة أمه وأبيه، تلمسها، تتحسسها، تألفهم وتألفها، وكأنها تستمع إلى ما سجله هذا الفضاء الحميم من ذكرى صوت ضحكاته التي ملأت المنزل، شقاوته، حبه الشديد لأخوته، وفتحت خزانة القلب وحكت له أيضًا عن سفرياتها الكثيرة مع والدها، بيتها الأول، حبها للأشياء، لبعثرة اليوميات الصغيرة هنا وهناك.

في هذه اللحظة وصل الاثنان إلى منتهى الرقة، لا يستطيع بعضٌ من كلماتي أن تصفها ولكن ألا تخفي أسقف الجدران صدى أصوات الأحبة؟؟



"أصوات خفية حبيبة أصوات أولئك الذين رحلوا أو أولئك الذين بالنسبة إلينا ضائعون، تتكلم في أحلامنا أحيانًا،

وأحيانًا في الفكر يسمعها العقل، ومع أصدائها تعود برهة أصوات من قصائد حياتنا الأولى مثل موسيقى بعيدة في الليل تضوي ثم تخبو. "كفافيس"

ربما سيأتي يوم يحكي عني "لقد كان الوحيد الذي يفهمني" وأتخيله مع ابني، وهكذا العقل يتشتت يكاد يفر الصبر مني، أتحرك من مكاني، سئمت نفسي كل شيء، وأجده قابعًا على المنضدة أقترب منه، هذا الكتاب سيفقدني الباقي من العقل كأنه يناديني فأحمله بين ذراعي، وأعود أفتح صفحاته أشرد بعيدًا مع قصة أخرى كأني أنا التي كانت تحكي:

عنوانها أصوات خفية:

.. وجاءني صوتها وهي ما بين الإغفاء واليقظة.. وهي تُحمِل صغيرها وصاياها: "يا بني لا تحزن وكن رجلاً".

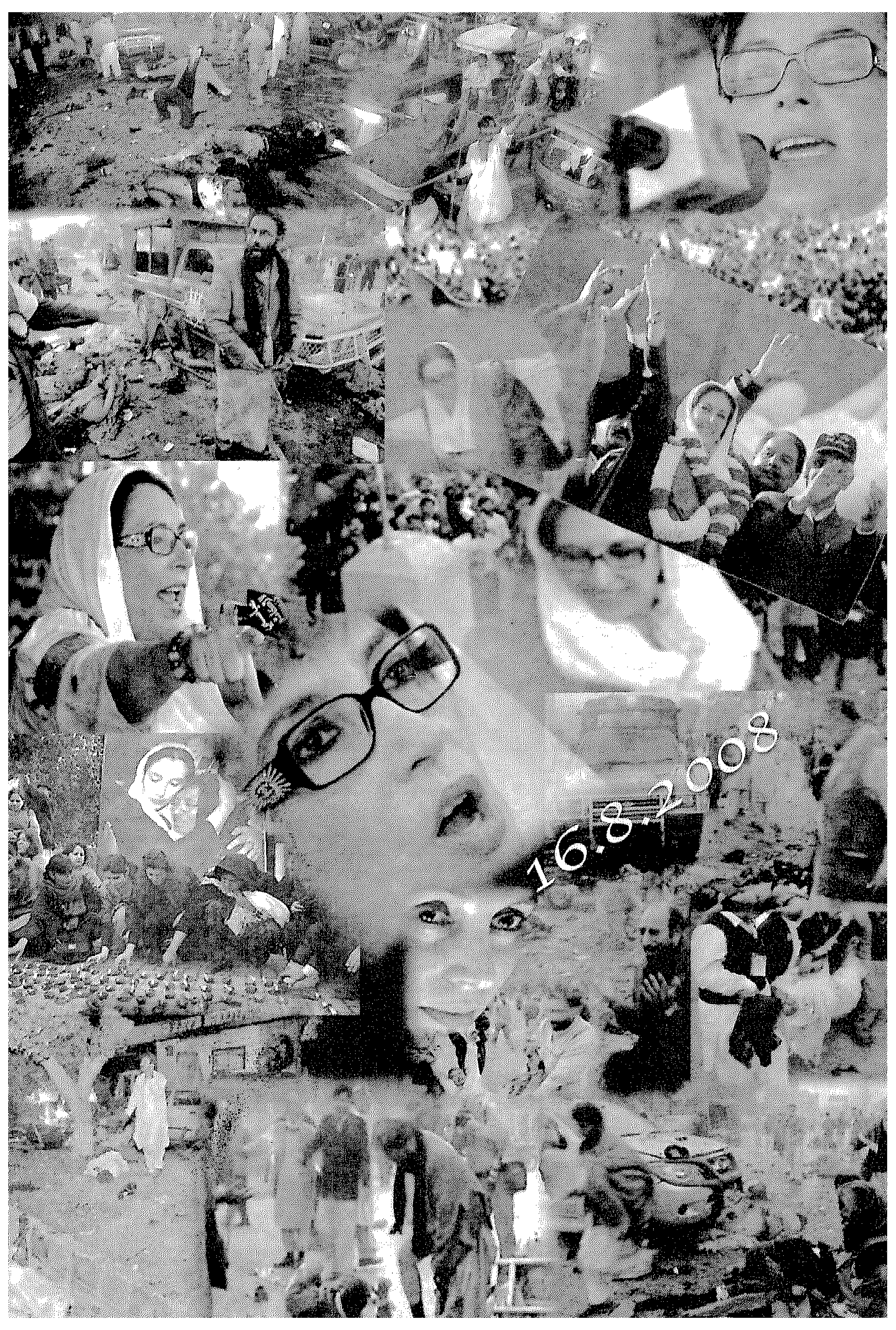
ولقد أحكمت قبضتي على شغف القلب.. لا لن أعود إلى تلك السحب.. لن أُحمِل القلب ذلك الثقل.. ولن أحَمل في أطياف ثوبي آثارًا للغضب أو الجرح...

أنا أعلم أين يسكن عاشق البحر الأصلي.. كل من مروا عليّ ليسوا إلا أشباه ذلك الشخص، أما هو فكان ولا زال وسيظل حاملاً رايات حبي.. يحتمل بُعدي في صمت.. ويأمل لي بالفرح في سويعات الفجر وحتى عند غروب الشمس. تحدثني عما كان، وكيف أنه قَبل الرحيل،

تنكشف لنا الصورة وتخرج إلى النور آهات سكنتنا.. موسيقى كانت تشجينا، وأكملت أنت تعرفه.. هو قلب امتلأ بالجرح ورغم آلامه، كان يسندني.. يزيح عني.. يواسيني.. يؤازرني.. يحميني.. يساندني.. يظلل على عمري.. يحمل صورتي ما بين سواد العين والرمش.. خصلات شعري.. وقنينة عطري.. إذا فرحت.. فرح.. وإذا بكيت تبلل الدموع وجنات ذلك الوجه...

أسأله في دلال: هل اشتقت إليّ؟؟ فيجيبني في حذر: وهل ابتعدت يومًا عني.. ما بيننا أنقى من لؤلؤ البحر، أبهى من ضوء القمر، أرق من همس العشق، وأكثر ما يؤلمني في هذه اللحظة أني أحيانًا كنت أبحث عنه فتسوقني أقدامي إليه، وتحملني دروبي إلى ذلك السكن، حزينًا هو عندما يحمل إلى الليل نجواه..

في يوم الرحيل.. ساعة الاغتراب.. سيأتي.. عندما تلقاه.. حنَ عليه.. وتذكر أنه كان رفيقًا بي.. فتلقفه في أحضانك.. وأسندني.. يتسرب الصوت.. مبتعدًا.. رويدًا.. رويدًا.. تتراجع دقات القلب..


16.8.2008

الفصل الرابع

الدمية

" ما ظننت ان نورك الذي سحرني

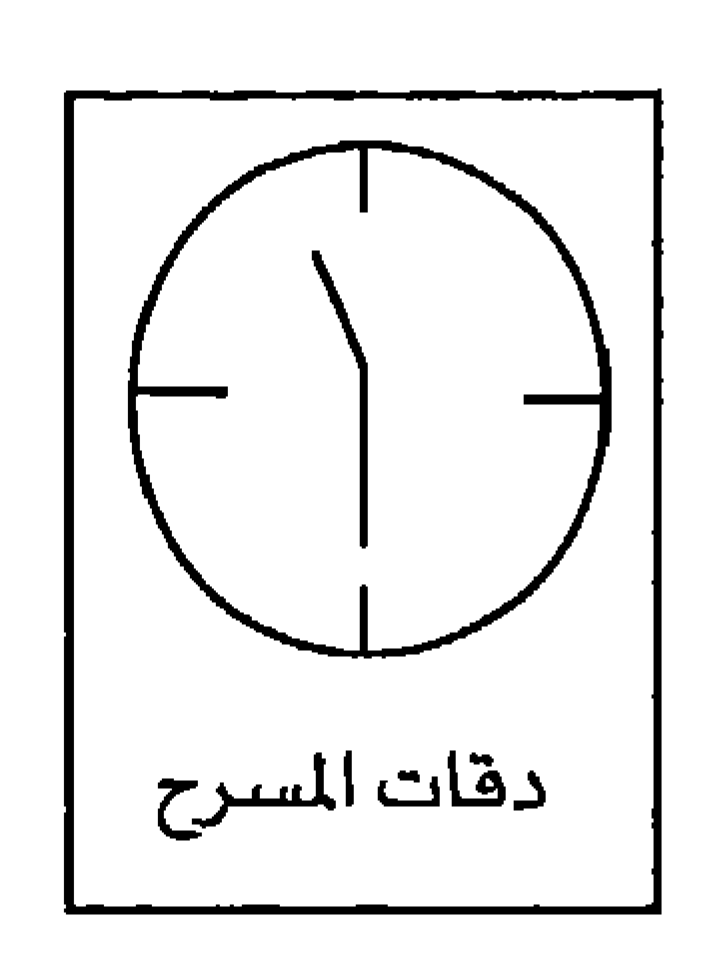
هو نور قلبي الذي انعكس عليكي

حتى انطفا وتحول عنك

وإذا بسحرك قد ذهب

وإذا بك دمية كغيرك من الدمى"

"يوسف السباعي"



مثلما يحمل الهواء تنبؤات ستوتة عنها... تدور الأحداث وتأخذ شكلاً آخر تمامًا تأخذنا معها وتمضي مثل سحابة إلى ذلك المدى البعيد الذى يعانق زرقة.

ترن كلماته في أذني بل تبقى في مسامعي و إن مر الوجود وإن فنى، ما زلت في ثنايا القلب أحتفظ بذلك الطيف الذى تشرد واندفع إلى حزن الجسور – إلى صمت البيوت – خلف تلك الجدران التي أسرت عنها ارتعاشات القلوب – وذبول الجفون التي يلبس الزيف من ورائها صورة الحقيقة وتتفنن في تبديلها بل أحيانًا تخفيها... كما أخفت الجدران أشياءً أخرى جاء وقتها و سأحكي بكل جرأة عنها:

كأننا في عالم آخر؟ هل يصدق أحد أن هذا في داخل مصر؟

قرية العزيزية، مبنية على الطراز الإيطالي نافورات رخامية – تماثيل آلهة رومانية – وتتمايل الستائر الفرنسية من الشرفات – تحضن برقة الأزهار الجميلة التي تتراص في أصصها.

تتميز العزيزية بفيلاتها الفاخرة الدوبلكس ولكل مجموعة منها حمام سباحة خاص بها تتخللها حدائق وأشجار الجهنمية..

كان ذلك اليوم يوم حفلة سميرة هانم.

ودعت كعادتها صفوة القوم يعني (la crème de la crème) ويقف زوجها كارم بيه السفير السابق بالخارجية يستقبل

الضيوف ويرحب بهم وطبعًا للشلة إياها ترابيزة خاصة، عليها كل ما لذ وطاب.. "كافيار" و"سيمون فيميه" مزات من كل الأشكال، وترص زجاجات الخمور في منتصف الترابيزة (متصقعة جوه الثلج المجروش في طبق غويط) وكلها طبعًا معتقة وقديمة مكتوب أسفل كل زجاجة تاريخ إنتاجها....

(يحضر الباشا اللى عليه العين) كما يجب أن يناديه الناس والاسم رجل من كبار رجال الأعمال، يوقف المراكب السايرة والأعمال والصفقات بنظرة منه.. يميل عليه الشماشرجي وهو أيضًا رئيس أحد شركات الاستثمار:

- سيف باشا، تفضل سيادتك تبدأ بالدرينك وإلا يفتحوا البوفيه على طول؟

فيشعل الآخر سيجاره الكوبى بولاعته "الكارتيه".

"الله جميل يحب الجمال"....

- مين اللي هناك داخلة دي مع لولة؟

- آه دي الست إياها.....

- أعرفلى كل كبيرة وصغيرة عنها... وحطها جنبي على الترابيزة المرة الجاية.. أوكيه ولا إيه...

- ابسطى طالما بص ناحيتنا يبقى أكيد حنتعزم العزومة الجاية.

تعدل ماجي قامتها، وتنظر نحوه بنظرة ذات مغزى...

من يومها وهي تستعد.. آه لو سيف سليمان وقع في شباكها لازم حتمًا تستغل الفرصة.

الديون تجاصرها، ومرتبها في الشركة يادوب على قد القد.. لازم تبان قدامهم بكامل أناقتها...

تجيب فلوس منين..؟ تستلف من مين؟
تفتح الأجندة.. الدكتور علي.. استنفذت معاه كل الحيل...
المهندس صفوت.. حججها معاه مقفوشة.
مدام ثناء.. مش راح تستحملها!!!
وتفر ورقة وراء ورقة.
أيوه.. أيوه صاحب محل الأنتيكات ده بس يتمنى نظرة.
- إيه يا حاج حنفي أنت نسيت صوتي ولا إيه؟.......................
ثم تنهي المكالمة بنهنهة من نهنهاتها – ده جميل مش راح أنسهولك – بس يوصل الشيك – والفلوس راح أبعتهالك على طول...
تغلق السماعة ثم تبدأ في تثبيت أظافرها الصناعية.. كده بقى الحكاية أحلوت...

اشترت بخمس آلاف جنيه طقم من "scada" وتأكدت من البائعة بعد أن ظرفتها عشرين جنيه أنهم ليس لديهم غير واحد منه، تبقى كارثة لو حد لابس زيه.. كده تسبك الكذبة، أصل أنا اشتريته من paris الأسبوع اللي فات.

يوم في الـ spa شاور باللبن والعسل.. ماساج كرياج وحقنتي "بوتكس" و"ماسك" من كريم "la prairie" تبقى عروسة في ليلة الحنة.....!!!

الغداء في القطامية سيحضر فيه ناس محدودون ومحددون لازم تبقى مساوية أمورها، ضحكة هنا، نظرة هناك، وترش نمرة تليفونها، أصل أنا مش برد على النمر اللي مش بعرفها، واللي يجي من الصعايدة كله فايدة... تخليص ناس من ناس..

ابتـزاز.. بزنسـة فـي كـل بيعـة.. قعـدة لـزوم القعـدة... "partita" ماتعديش الهواء... حتى ولـو كانت شوفه هـي قـد إيـه متواضعة عربيـة "leganza".. ومـالوه مـا هـي والخـاتم السـولتير هديـة مافيهاش حاجة يعني، ليه بتعملوا أزمة من غير لازمة؟؟

الفلوس مع التيوس... والفلوس راح تجيب فلوس... واللي يسـأل أهه الشركة برفان.. تبقى أقوى من الرجال – دي ولا "ماتاهـاري" في زمانها... تضبط في مرآة يدها بفرشاة ناعمة البودرة...

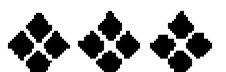
يفتح باب السيارة: تخرج بأقدامها..

أربعـة رجـال يتوقـف حـديثهم لثانيـة بمجـرد مشـاهدتها... وتتغامز السيدات بنظرات محفوفة بالغيرة والدهشة...

ويتردد سؤال... ويفرض السائل نفسه بإلحاح...

- "لم ترد عليَّ يا سيف باشا...

- "هل صحيح بنوك تل أبيب بتشتري السندات المصرية....؟؟؟"



وهكـذا أتأمـل الـذي حـدث، أقلـب صـفحة مـن صـفحات الحيـاة، ودخلـت بـدون أن أدري عـش الـدبابير، هـذا يأخـذ مـن ذاك، وهذا يلسع ذاك، يموت الكلام بعد أن ملت الشفاه ما كانت تلوكه من تافه الأخبار...

ويفـاجئني مثـل لحـن حـائر.. يـراود روحـي ويهـديني بعضًـا مـن كلمـات بهـا أعـود إلى سـاحات النقـاء، إلى البـراءة الأولى لكـل الابتسـامات، لـلأماني التائهة بلا رجعة في ذلك الطريـق الطويـل الـذي مشـيته، يـأتيني بـلا سـابق إنـذار هـذا الشـعور بالفرحـة، كأنه هو الذي جاء..

أفتح ستار النافذة، ما زالت السماء ملبدة بالغيوم، أفتح الكتاب وأجد نفس الطقس مع اختلاف الرؤية.

أقرأ العنوان "الياقوتة الحمراء"

..غيوم لاحت ثانية في الأفق..

أول الشتاء بوادر نزلة البرد والسعال لا يفارقني، تهاجمني نوبات متلاحقة وتطبق على أنفاسي بشدة، وعدت أدراجي إلى أول الخط.. المحطة نفسها.. وأصبح الخوف من تكرار الخطأ، والوقوع في مصيدة الشك، والتردد دائرة تحيط بي من كل اتجاه، ورغم سوء الجو وجدت أقدامي تسوقني إلى هناك، أبحث عنها، وأمسكت بتلك الودعة، وقلبتها بين يدي، وقربتها من أذني أسترق السمع ثانية، وأتاني صوته: "حاولي أن تعتادي ساعات الغياب.. كلام الصمت.. همهمات الهواء.. وانصتي في عمق الليل.. ستصلك دقات قلبي التي سكنتها اللوعة.. لفتت نظري.. وأعجبتني.. وأتذكر ذلك اليوم حين اشتريتها.. وبيد مرتعشة لمستها.. ودققت النظر في جوانبها، وهي تتربع في علبة من القطيفة السوداء، بريقها يسطع مثل آلاف النجميات في سماء سكنتها الظلال، تفاجأت بها، أجمل ما

رأيت على الإطلاق، بديعـة في تكوينهـا.. دافئـة في لمعانهـا لونها في لون أشياء كثيرة تتحلين بها.. وتزهين أيضًا قداحة الدخان.. لون هاتفـك النقـال.. الشـموع الصـغيرة عـلى المنضـدة، والشـموع الطويلـة بجانـب التلفـاز، وسـائد الأريكة، أزهارك فوق المدفأة، شالك الحرير الهندي، لـون وجهك حين يعلوه الخجـل والكسـوف، لحظـة خسـوف القمر، تحمل لون السعادة.. بريق الفرحة.. علامة الحب.. رمز القلب، يقتنيها الملوك والأمراء، تجـدينها فـي صـور التراث، يتحلى بها النساء والرجال، عـلى نقـوش المعابـد، وتعويـذة مـن طلاسـم الشـفاء، قيمتهـا تقـدر بـما تعنيـه مشاعري إليها.. لا تقدر بثمن.. إنها كـل مـا ادخـرت في سنوات، سنوات التغريبة، وتـذكار لرحلـة طويلـة بعيـدًا عنها، آه لـو علمـت أن أزرار قمـيصي تحمـل نفـس لـون الحجر وعليه نقش تاريخ.. تاريخ أول لقاء.

كلما مرت بي لحظة جميلة.. نسمة رقيقة.. أتذكر تلك الفتاة التي شجعتني على رحلة هي كل العمر، تقف بعيـدًا عـلى الميـنـاء تلـوح لي، وعيناهـا وشـفتاها تضـحكان ضـحكًا

كالبكاء، وتحملت وحدها سنوات من شقاء تتحمل فيها ساعات الوحدة.

تساءلت بماذا أكافئها؟ أريد أن أعطيها شيئًا مني ربما تحمل قطرات من دمي.. العقيق يمنح البركة والرزق.. والفاروز يحمي من الحسد والعين.. والأمتيست والزبرجد من الأحجار السبعة المقدسة.. أما الياقوته الحمراء.. فهي فريدة.. أحست أنها تخصها هي، وشددت على قولي إياها: لا تخلعيها من يدك، اتركيها معك، تذكرك بي أحيانًا، إن هانت، يومًا الذكرى.. لو تاهت عن عيونك الفرحة.. وتلاشت فوق شفتيك البسمة.. انظري في صندوقك ستجدين هناك قلبًا عشقك وأسر إليك بالنجوى.."يزدادُ سعالي.. [أضع الكتاب جانبًا]..أفتح قبضة يدي.. وأجدها.. تحتضن عقلة إصبعي..

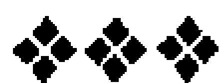
ولكم أود أن أحكي لكم عنه.. وها قد جاءت الفرصة على طبق من فضة:

يهديني نورًا أهتدى به كلما أظلمت السماء..

فأذوب عشقًا كما ذابت الشموع ومرت إلى الضياء.. كأني أعود إلى نفسي، ورغم أن الصور تعود إلىّ أكثر وضوحًا

وأحاول أن أرسم ملامح الأخريات..

بلا وجل أو رجفة رفضت الفوضى.. والتهديد.. والبطش.. كما يرفض الأحرار الهيمنة والطغيان.. والتمسك بالمبادئ أصبح كمن يقبض على الجمر.. في دائرة ما عدت أسمع فيها غير التجني!!!



- "اللي ما لهوش كبير يشتري له كبير"

هكذا بدأت لولة كلمتها - عشان كل حاجة تستمر صح وتتخلص من تلك الوجوه التي تتصدى للرشاوى والفتن - ادعت أن الحكاية سايبة وأننا مش ماشيين بما يرضي الله، وبنعمل تجاوزات كتير، مالية.. إمضاءات على قروض وهمية.. منح وهدايا.. وتفننت في الاختراعات، رسائل كيدية تصل إلى زوجي في المنزل، في المكتب مقالات في الجرائد، تصريحات وتكبر الحكاية وبدل ما يكون الخلاف بين اتنين. وتبدأ مع ماجى وصاحبتها نشوى وثناء في تكوين خلية... كل دول كانوا ظاهرين لمحت عيني كراهيتهم للدنيا، وده حالهم مع كل الناس ومع أى حد، لم أعط لرسائلهم البذيئة لي وتجريحهم في أي اهتمام.. كنت دايمًا أقول لنفسي وأكتم على صرخة قلبي ما لوش لزوم.. ربنا أقوى وأنا فوضت أمري له، ورغم أني لم أجرح أحدًا ولا دست على طرف حد حتى في طريقة السلام، ومن العجيب أنى لا زلت آخذهم بالأحضان.

دلوقت بقوم واحدة اثنين، ثلاثة، أربعة... لا في واحدة تانية نسيتها.. ونسيت أيامها.. نقل الكلام وتغييره لعبتها.. لكن التي

لم أعمل لها حساب كانت رقم خمسة: الشهيرة بنانا واسمها الحقيقي نرفانا...

أعجبت نانا الدنيا التي أنا فيها.. رائحة عطري.. لون ستائري.. تقربت مني بكل هدوء.. تودد زائد.. لم أفهمه في بادي الأمر حتى صار شيئًا عاديًا أن تكون بصحبتي في كل مكان.. كأنها بنتي اللي تبنيتها.. كل ما أسلم على حد.. سيدة أو رجل يبقى لازم ولا بد هي كمان تعرفه وتأخذ أرقام التليفونات وتشتغل عليهم بالموبايلات ده رسالة وده همسة عتاب، وتتوطد العلاقات مع تلك وذاك، ولا بد أن تصبح علاقتها بهم أقوى، تسألني في كل التفاصيل، وتردد كلامي كالببغاء، تقليد رخيص للعملات الأصيلة، وصارت تطمع في كل شئ معي حتى ولو كانت لقمة عيش حاف.

"ما الدنيا إلا مسرح كبير على رأى يوسف بك وهبي"

ورغم أني أسدلت على علاقتي بها الأستار للكثيرين منا في تلك الحياة ميول طارئة، تراهم سائرين عبر المدينة، يسكنون في أفخر البيوت ولكن ألا تخفي النفوس رغبات متراكبة؟

حكايتها مع المهندس صفوت فاحت في كل مكان ريحتها... لولة عرفت ديتها.. إذا فكرت تقول كلمة حق واحدة تهددها وبالتالي تقفل فمها على طول وتقول حقي برقبتي (أمال دي تبقى فيها خراب بيتها...)

أول مرة رأيتها حق الرؤية كان من كام سنة بس.. تلك القروية الساذجة، ذات الشعر الأكرت والعيون الصغيرة، ينم

دائمًا كلامها عن جهلها، يا رب يا شفيع يا حلال العقد، اعتقدت أن الفرنجة والصعود والتواجد في الطبقة الراقية هو في شرب السجائر بشراهة، وإضافة بعض الكلمات الأجنبية في الحديث، وبتعدد العلاقات مع الرجال المحترمين والمهمين، وكنت أنا بمنتهى البساطة تذكرة الدخول إلى هذا العالم، لما اتمتع به من علاقات قوية وحضور لافت، وحب حقيقي للآخرين والأخريات.

أصبح عالمي يبهرها وكان لا بد لها من الحصول عليه، ولتكن الخطوة الأولى هي: قتلي والمشي فوق جثتي..

أعود إلى أول يوم تقابلنا، الانطباعات الأولى تدوم وتكون في الغالب هي الأصدق، في أحد تلك الشواطئ الخاصة جدًا في الساحل الشمالي، ولجت لأول مرة، أنا التي جبت وغطست في شواطئ مصر كلها، دخلته من باب الفضول بعد أن دفعت رقمًا فلكيًا.

شاطئ محاط بسعف النخيل، الأمواج فيه عالية، يعج بكم من النساء والفتيات، وأكشاك الأكسسوارت والمايوهات والحقائب، مطعم صغير كل العاملات فيه من النساء، ممنوع دخول الرجال بتاتًا.

اصطحب المصريون العائدون من الخليج ودول النفط عادات وتقاليد لم تكن في مصر، منها الإسدال والخمار إلى آخر تلك المسميات التي تجعل المرأة تمشي كخيمة سوداء يقطر منها العرق، كما أصبحت تقام أفراح في أفخم الفنادق على الطابع العربي، النساء في مكان والرجال في مكان آخر.

وكأني قد دخلت إلى ساحة العراة، وكأني في نيس أو "الكوت دازور" الكل تجرد من القيود والملابس، تتهادى النساء وتختال بكم الحلي الذهبية والماسية و(التاتوه) المرسوم والمطبوع على أجسادهن: عرض عام ورخيص لكل المايوهات البكيني الساخنة، كلٌ في إطار المسموح والغير مسموح أيضًا.

واكتشفت ظاهرة الرقص البلدي الشائعة، تلتف النساء في حلقات لمتابعة المسابقة ووسط تلك الدائرة: وجدتها، كان المشهد غريبًا، ترتدي (مايوه) يشبه بدلة الرقص يكشف عن صدرها وظهرها، وبطنها تتوسط سلسلة ذهبية، كانت منفعلة وتضحك ضحكات هستيرية...

تثير غيرها من الواقفات، وتناديني لكي أنضم إليهن بحركات مبتذلة، هي لحظة تتكشف فيها لنا الرؤى.

حقيقة منظر العري جعلني أشعر كأني في ملهى رخيص أصابني بحالة من الغثيان..

وكذلك يوم أن صارحتني بأن صديقها الجديد المهندس صفوت الذي لم أكن أعرف عنه شيئًا بعد، عرفت بعد ذلك حبه الشديد وسعيه للنفوذ والتسلق أصبح بقدرة قادر بين يوم وليلة في الحزب سوف يفسح لها مجال فيه.. والغريب أنها نطقت كلمات أدانتها:

- "مكان أهم من اللي أنتِ فيه بكثير"!!!

يومها عملت نفسي مش فاهمة، وتكررت مقالبها مع تلك وذاك.

تركيبة فريدة.. غيرة زاد عليها رغبة في الإيذاء والثأر من الرجال، حتى محاولتها الرخيصة في أن تصاحب د.عبدالعظيم، والتردد على مكتبه بدون أي مبرر منطقي، رغم أنها تعلم أنه مع ثناء..

لكن (وماله ينفع برضه)، ومحاولاتها الرخيصة في إفساد حياة الآخرين كم من الوجوه تداريها المساحيق، التشوق إلى الظهور والخوف من الوحدة يدفعان أحيانًا المرأة الساقطة إلى الانغماس في علاقات تشعرها بالاستمتاع وعدم الالتزام في آن واحد.

وللأسف ينتج عنهما مواجهة عنيفة بين التنافر والرغبة، وكراهية دفينة لمن يكتشفها.

من وراء ظهري اتحدت مع الأخوة "أخوة كرامازوف" تبلغهم أخباري وتتخلى عن كل القيم ومفهوم الصداقة وتحكي عن لساني حكايات وتوقع بيني وبين الناس..

سافرت لها كام شهر لحد ما الناس نسيت فضايحها ومواقفها.. عملت نيولوك جديد.. وغيرت جلد الثعبان.. ولبست قناع جديد.. تفتكروا لبست جلد إيه؟؟ فهد منقط.. وإلا سبع سعران.. ولأن الاختيار لم يقع عليها أبدًا في أى مركز أو سلطة.. الإحساس بالنقص زاد معها.. وكلما تكون هناك فرصة للإساءة تبقى أول المتقدمين في الصف (ومش معنى كده إنها ابتعدت) بل حدث العكس تمامًا تمسكت بكل شئ وكل دائرة أنا فيها رغم أنى قد بدأت أبعد وأنسحب

(شوية شوية).. وأقفل بالتدريج قلبي المفتوح على مصراعيه على الأقل من ناحيتها، وكفى الله المؤمنين شر القتال.

وهأنذا كل يوم أتولد من جديد: نفس الطفلة.

من الممكن أن تكون الصورة أمامي في هذه اللحظة أكثر وضوحًا..

في ناس عايزة كل حاجة في إيد غيرها.

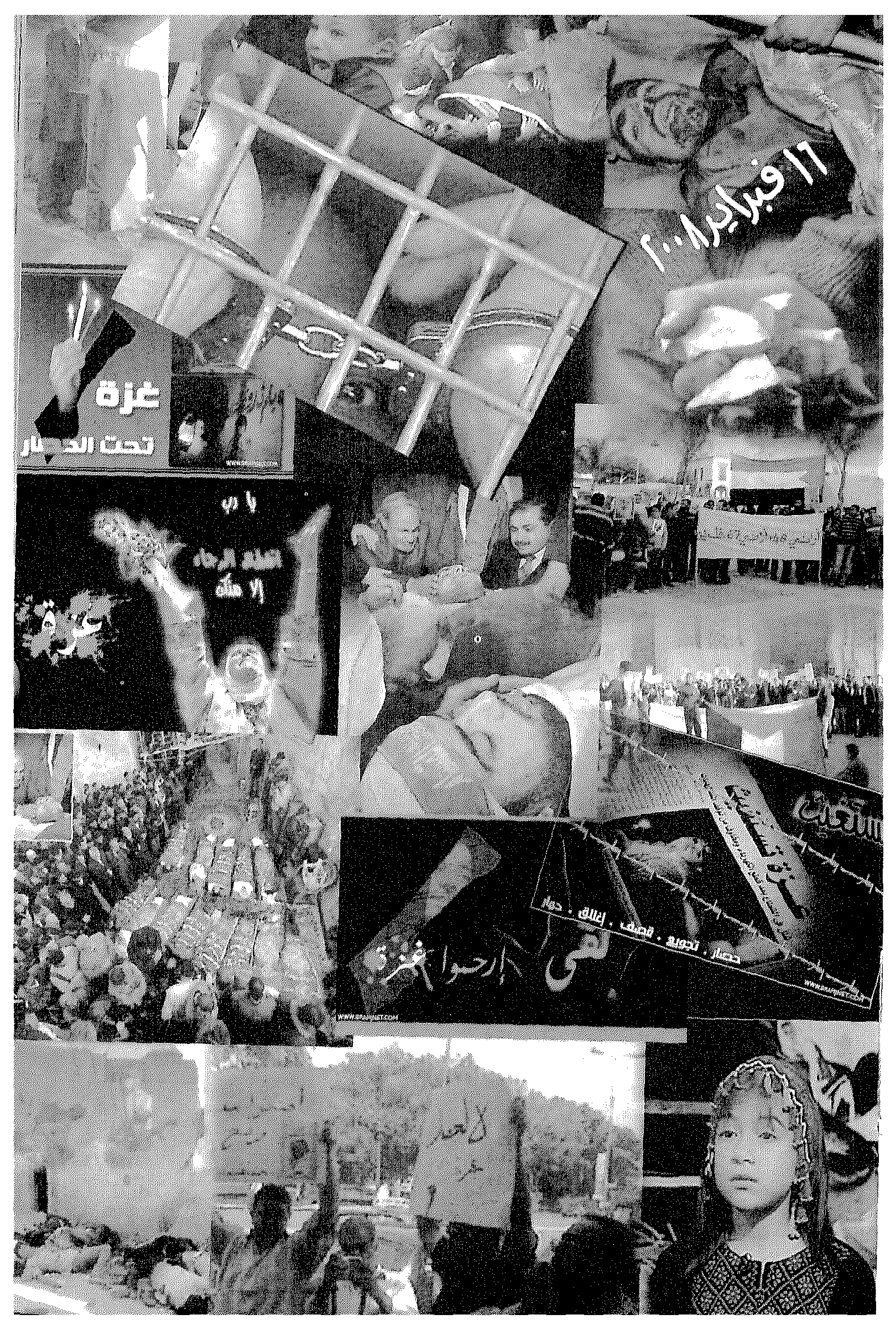
من يتقي الشبهات يصبح مثل المعتصم أسير... أسير للقيل والقال.. أسير للظلم.. ومن يتصدى لكل أنصاف الحلول يطبعوا على جبينه قبلة من نكد.. يغلفونها بالألم.. ويزيفونها بالعدم.. تلفق ضدي المحاضر.. وترسل ضدي الشكاوى في كل جبهة تصديت فيها لأي زلة..

وترسل إليّ التهديدات: ("أنتِ أحسن لك تشوفيلك حاجة تانية تعمليها.. والصور والعقود اللي معاكي بليها واشربي ميتها وحنشوف يا إحنا يا أنتِ في الدنيا.

حتعمليهم على بابا يا شاطرة.. وعمرك ما حتكوني رئيستنا...

حنعلمك إزاى الرقص على الحبال.. وفعلاً تعلمت رقصة جديدة بعيدة عن كل المفردات... كأننا في غابة كبيرة تحت السماء التي يرصعها القمر:

تعلمت كيف يكون الرقص مع الذئاب...

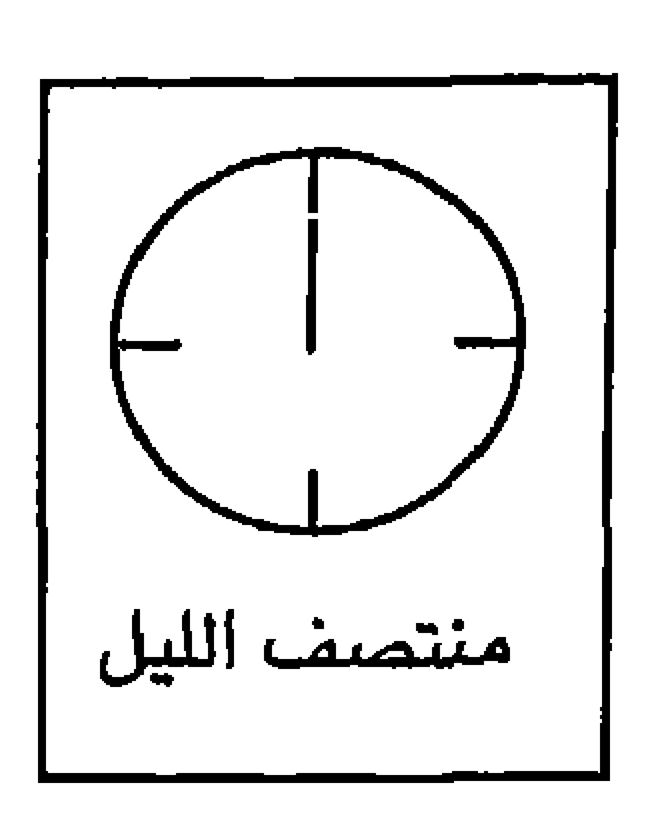


١٦ فبراير ٢٠٠٨
غزة
يا رب
ارحموا غزة
حصار . تجويع . قصف . إغلاق . حوار
WWW.SRANWET.COM

الفصل الخامس

الرقصة

" دعني ارقص مثل سالومي
في باحة جحيمك
أنت الطهر الوحيد في التراب "



فجأة تظهر الحقيقة أو وجه منها... أن السر يكمن في تلك النفوس التائهة وما زالت هناك عواصف ستهب، فلا نستطيع أن نغلق أبواب الرؤية ولا حتى نواربها.

كنا نستعد في تلك الليلة لإقامة حفل راقص - احتفالاً بتوقيع العقد مع أكبر شركة من شركات العطور والتجميل والأزياء..

وكالعادة حضرت كل الشلة، سيف سليمان محاط بالبفة إياها بجانبه عبد العظيم الذي أصبحت أخاف منه وأتحاشى نظراته غير المريحة في نفس الوقت.

وقمت بمحايلة زوجي لكي يحضر معي، فقط هذه المرة.

زوجي: (على فكرة فيه كلام كتير حوالين الشركة ياريتك تخدي بالك شويه من تصرفاتك، يا ريت تراعي إنك زوجة).

أميرة: (برضه إشاعات ملهاش أساس، أنا عارفه من يوم القضية بتاعة قروض البنوك والتحقيقات وأنت شايف كل حاجة فيها ريبة وشك، يا ريت تفصل ما بين شغلك والبيت).

لم يفتح قلبه لي هذه الليلة، ويحكي لي عن الرسائل التي وصلته ربما لو كان فعل، لو كان بساط الثقة امتد ما كنا وصلنا إلى تلك النتيجة فيما بعد، أطلق حكمه واكتفى بتنبيهي وتقليب الشكوك في ذهنه والهواجس وها هو يقف بجانبي مثل

كل المتفرجين يتابع أحداث الحفلة ببرود أحسده عليه.

أميرة: سأعود إليك بعد قليل.

زوجي: خذي راحتك أنا حقعد مع زوج نشوى.

ومن وراء الأبواب المغلقة للحجرات - التي استأجرناها في الهيلتون لإقامة العارضات - وضعت حقيبتي وشماعة بدلتي السوداء لحين ميعاد السهرة، وهممت بالانصراف، ولكن استوقفني منظر نشوى وقد ركزت عيناها بنظرة في غاية الريبة ناحية نانا التي كانت مترددة في اختيار ثوب من الأثواب، وهي تتطلع لنفسها في المرآة وهي تقريبًا شبه عارية، تتحرك شمالاً ويمينًا بلا استحياء، وتحرك جسدها وتميله على إيقاعات موسيقى السامبا التي تتساب من السماعات وتتبادل هي ونشوى النظرات..

ده أحلى؟ وإلا ده أحلى؟

فتجيبها نشوى وهي تقترب منها تشاركها هذا المرح الفجائي وترقص معها، تتحسس رقبتها وكتفها.. إيه يا بت الحلاوة دي.. الأحمر عليك حيكون جنان.

تعالي ألبسك تعالي...!!

تقترب منها أكثر وأكثر بدفء الأنثى الذي يشع من مسام جلدها الندي، والفرح الطفولي يتقافز من عينيهما.. كانت البداية مداعبات يمكن بالإجماع أن نعزوها إلى ألفة الأصدقاء في صالة اللعب ثم تجاسرتا وبدا لهما أن مشاهدتهما على الملأ إنما تضيف فسقًا إلى متعتهما وتريدان لذلك إمتاع عيون

الجميع بصنوف لهوهما الشريرة، تتساب الكلمات أمامي واللفتات والسكنات، فأستخرج من أغوار تلك النفوس المنسية المغلفة بالضباب وجهًا آخر آثمًا يزهو بفرح الحياة الغريبة التي تسكنها الشهوة من تفاصيل تقاطيع الجسد النبيل..

أحكم إغلاق الباب ورائي ويدنو إلى مسامعي صوت ماجي وهي توشوش في الموبايل:

-بلاش الليلة مش حقدر.. حنقول إيه لمراتك إحنا الاتنين اختفينا كده فجأة!!! شه.. شه.. بعدين.. بعدين.

حمرة تجتاح وجهها: أنت أفزعتيني!!

ألاحظ ظلال رموشها الكحلي يرتجف بسرعة، تتراخى تقاطيع الوجه، وتتجمع نقط صغيرة من العرق فوق جبهتها... فأشفق في تلك اللحظة عليها "ألم تستعدي أنت الأخرى بعد" وتجاوبني بتلقائية " والله ما أنا عارفة حعمل إيه......!!

بعد ساعة من دخولنا الصالة.. ألاحظهما عن بعد.. يحاول أن يقترب منها، تتحاشاه.. فيحاصرها بنظراته أينما ذهبت، ضغط غير عادي.

وعلى مائدة سيف سليمان يدور حوار من نوع غريب.

حسام الزيات: تعرف يا سيف باشا قابلت مين في ألمانيا.

سيف: خبر سفريتك إياها، سمعت طراطيش كلام عنها، المهم عدت على خير، والمهمة بتاعتك أنت أخذت ثمنها يا نمس مرتين.

وبهدوء بارد يتجاهل حسام مغزى الكلام ويستطرد قائلا:

- عازمني على العشاء "مسيو بنيامين" تعرف الاتفاق بتاعنا لازم يتعدل، النسبة بتاعتي في المنتجع السياحي بتاع الضبعة اتغيرت العملية عايزة شغل على تقيل قوي...

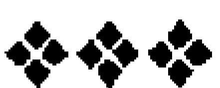
(ترمش عين سيف سليمان لمدة ثانية ويتمتم بصوت بارد الظاهر إنك كترت من الشرب الليلة، خلي بالك من الكلام ده).

يقترب عبد العظيم من سيف: هي إيه الحكاية، حسام زودها شوية.

سيف سليمان: (زودها كتير)...

وسط أجواء تظللها الزينة والبالونات وروائح زهور الياسمين.. يدعو حسام ماجى للرقص وسط ذهول المتفرجين ألمح من بعيد عيون الزوجة هي أيضًا تتابعهما، إنها حفلة الاكتشافات، أهمس لزوجي على المائدة: "أتريد أن نرقص؟!"

فيرد بكل جفاء: "لا"



إيقاعات منظمة.. أيادي تتشابك.. ونظرات تتعانق.. وجوه تبتسم.. اتحاد الخطوات، تناغمها.. هكذا يبدأ المشهد، المشهد السابع للفيلم:

رقصات الفلكور الشعبي لأهل الغرب في أمريكا لها وقعها الخاص.. وفي ذلك المشهد الذي يدور أمامي على شاشة التليفزيون... تفاصيل أخرى تدور في رأسي.. مما يجعلني أتساءل: هل مرت الأشياء هكذا حولي؟ أم مررت بقلبها، حتى كأني توحدت مع اللقطة وصرت مثلها على رفيف أجنحة

اليمـام أسـافر إلى الأحبـة.. وأسـافر أيضًـا إلى غابـات لا زال يسكنها الناس.

يقيم (روبرت ريد فورد) بطل الفيلم حفلة على شـرف ضيوف المزرعة.. وبمناسبة انتهاء موسم الحصاد، وانتهاء الشتاء بحلول بوادر الربيع..

تمتزج القفشات والضحكات، تذوب الحواجز.. تبحث عينه عنها لا يفارقها.. يحتويها.. يحاورها.. كأن بينهما خيط رفيع يشدهما..

يدعوها للرقص.. فتلبي إشارته طائعة ساكنة.. وعلى إيقاع الموسيقى الحالمة.. يقتربان أكثر وأكثر.. يتلامسان.. يذوبان.. وكأنها أول مرة.. أصدق مرة.. أقرب مرة.. تتعلق بكتفيه للحظات.. يضمها.. يشم رائحة شعرها.. يسمع دقات قلبها.. يحضنها أكثر.. يلفح خده حرارة خدها الناعم..

تحملهما الأنغام إلى عالم غير العالم.. إلى تلك الساحات التي تمنح من يجن بسحرها الفجري قبلتها.. وكأن الدنيا قد خلت من ساكنيها، سعداء أشقياء بالحب.. ويوشوش لها:

- "أعلم أنك لو لم تكوني موجودة فإن جزءًا من هذا الكون كان سيغدو ناقصًا"

لحظات تملؤها النشوة تختلط فيها مشاعر الرغبة — وأجد تلك الدموع التي ظلت حبيسة لشهور طويلة وربما سنوات — تنساب من القلب دمعة دمعة، ورغم أنى شاهدت تلك اللقطة من قبل — شئ ما ذهب إلى الأبد بلا رجعة...

إنه الحب.. جفانا ورحل عنا..

رنين الهاتف مرة أخرى:

- ماما أنتِ بخير؟

- أنا بخير يا حبيبتى.. ما تقلقيش!!

- أنتِ حتسافري تاني؟

- لا أنا رجعت خلاص..

- تصبحي على خير.

- وأنت من أهله..

لم يأت مساء مثل ذلك المساء أبدًا، وإذا البصيرة في محيط الليل تسعى إلى ومضة نور... ومسافة العمر كلما أوغلنا فيه.. تشتبك الصور وتتلاحق فيه وتغدو طويلة..

هذا العمر ما أقصره..! هذا العمر ما أطوله...!

(الكتاب ده جاءنى نجدة). يالروعة (وشوشات الودع) أتراه يحكي عنا أيضًا؟

أتابع رحيل وجه آخر.. أقلب صفحات الكتاب أمامي بصورة عشوائية، ياه أصبحت في الصفحة رقم ٦٠.

وتبدأ كلمات تلك القصة بوصف رائع أكاد أشاهده:

كان فوق رأسها.. نوارس بيضاء تحوم.

أعود لأول السطر العنوان "رحيل اليمام"

مثل أغنية بعيدة يتردد صداها ويبقى في مسامعنا حتى وإن مرت.. يرفرف من بعيد ظل جناحها.

..سكنت في عيني صورتها..

"يمامة شاردة وبعيدة عني.. قوللي مين بيحبك كده أكتر مني"

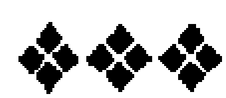
ولكم أحببتها دومًا، وعندما أرجع سنوات إلى الوراء أكتشف أن صوت هديل الحمام يذكرني بـ"نجاة" الصديقة الوفية التي دائمًا وأبدًا تنقذ صاحبها سندباد وتخرجه من المآزق والأهوال.. تحمل له في منقارها مفتاح النجاة.

وأي خلاص هذا ينشده البشر، وأي فكاك من المحال، وتصبح التيمة الشعبية: لحنًا يشدو به الأحبة في كل مكان:

"يمامة بيضا.. ومنين أجيبها طارت يا نينا.. عند صاحبها"..

تأخذنا التجربة إلى ضفاف الحكمة.. هكذا قالت لي يومًا ولم أكن أعي معنى الكلام، قد تمر عليك كلمة ما.. لحظة ما.. ولا تؤثر فيك، قد تمر عليك كلمة ما.. لحظة ما.. فتشقيك مدى الحياة، وتأملتها عن قرب، وهي تنحني لالتقاط الأصداف من الشط، تسبقني بخطوات ناعمة، هادئة الملامح جميلة.. من هذا النوع الذي يعكس الصفاء.. إنه جمال الروح ينساب في القسمات لا يحتاج إلى أضواء.. بل تجذبك على الفور العيون السوداء، أتابعها

بكل دقة، تخذلها أقدامها والعلة لا تفارقها: ماذا حل بها يا
ترى؟ أبعد تلك السنوات تنتابها تلك الغصة التي تدفعنا
إلى اتخاذ أصعب قرار؟ ويكون الخلاص في الفرار..
الخروج من الجنة حتى ولو كان إلى النار... أأستحَل
البعض فينا احتمال ما فوق الاحتمال؟ أضريبة يدفعها
الشرفاء؟ ويضيق صدري وأنا أنظر إليها، رغم أني قد
عقدت العزم على عدم التطلع إلى الوراء، وأن أجعل
الأمل درعًا للقلب ضد السهام، ورغم ذلك، أصاب
أحدهم في مقتل أحد الأبرياء، وها هي تتمايل خطواتها..
تترنح فجأة... أحاول أن ألحق بها.. أمد يدي.. فأجدني
أمسك الهواء.. أحلامنا.. أهدافنا.. تضيع هكذا؟ وتصبح
حطامًا.. أهذا موسم الغدر..؟ .. موسم الهجر؟ موسم
رحيل اليمام؟..



بعيدًا... بعيدًا.... يعود إليّ طيفهما.
ها هو الحب يتعثر خجلاً....
تلاحقنا أشواك الهواجس وتترامى إلى مسامعي أصوات
تكاد تودع رعشة إغفاء كما في ركن من أركان الصالة

حيث تخفت حدة الأضواء والموسيقى أو تكاد.. يقفان – يتبادلان قبلة خاطفة وراء قبلة – وقد لعب برأسه كأسا الشمبانيا فلم يعد يدري.

ماجي: أحسن حد يشوفنا...

حسام: أعملك إيه؟ أنتِ مش عايزه تيجي معايا بكرة!!

ماجي: المرة اللي فاتت عدت على خير.. ومش كل مرة تسلم الجرة...

حسام: يعني فاكرِة اليومين بتوع العين الساخنة.

يحمر وجهها خجلاً:

- فاكرة يا سيدي فاكرة.. وبعدين معاك...

حسام: تعالي معايا تاني بكرة...

ماجي: حشوف!!!

ومن خلفهما ظلٌ يمضي بهدوء.. موغلاً في سحب من شراشف دانتيلا: ربنا يستر...

وتغزل في نسائم الليل خيوط داكنة أخرى، عيون باردة تتابعهما ومن خلف سحب البايب يد غليظة تشاور بأصابعها:

- الليلة....................

هكذا تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فما بالكم لو تحولت الرياح إلى عواصف ثم (تسونامي)، تدمر وتحرق وتغرق.

بدلاً من أن يرفع الحب المعنويات ويحرك المشاعر الإنسانية الصادقة النبيلة وبدلاً من أن يدفع أصحابه إلى الأمام، تطالعنا

حكاية أخرى تمامًا دمرها حب الذات والتطلع والغرور، كان حسام الزيات وسيف سليمان وجهين لعملة واحدة، الاثنان طموحهما لا حد له، وكل منهما يتمتع بتلك الجاذبية الخاصة وذلك الحضور اللافت، نفس الصوت الجهورى والقامة المرتفعة ونفس العقلية الفذة التي تستطيع أن تحول التراب إلى ذهب.

كان حسام بالنسبة لسيف هو ابنه البار وامتداده الطبيعي.

الاثنان خاضا سنوات العمر الأولى في بلاد الخليج وحصلا على التوكيلات التجارية وكم هائل من العلاقات والنفوذ، كل منهما استطاع أن يرسم نفسه تمامًا، ويعدل صورته، حب النساء هو غيتهم، كل منهما عُرف بنزواته الطائشة وركضه وراء الفنانات والراقصات، وكل منهما حظي بزوجة أبعد ما يكون عن المستوى الأخلاقي والاجتماعي اللائق فنستطيع القول إنهما وقعا في فخ مصيدة نوع رخيص من النساء، من اللاتي يتمتعن بذلك الجمال الصارخ الذي يصفعك من أول مرة، فتكتشف بعده ذلك الفراغ الذي يثوي فيه، تقضي التفاهة على جمال المرأة.

ورغم فضولهما الكبير لفك سر غموض أى امرأة، واستبطان ما يختزن جمالهن من أسرار وقعا في الفخ.

فخ حب امرأة واحدة، فخ مثل فخ الثعالب، لكي يتحررا منه لا بد من القطع أو البتر، وأمام الآخرين تظهر صورة أخرى...

ولكن من يملك المال، يملك عصا سحرية يستطيع أن يغير بها أحيانًا ذاكرة الآخرين، ولكن سيف أكبر سنًا، أكثر

إدراكًا وأكثر حكمةً عرف أين يتوقف؟ وكيف؟ وكرس كل إمكانياته لتنشئة ابنته الوحيدة أحسن تنشئة وحافظ على خصوصيات حياته بكل الطرق.

هذا لا يمنع أن تكون لديه محظية ما من آن إلى آخر ولكن دون أن يمس اسمه من قريب أو بعيد، أما حسام فلم يكن لجموحه ونزواته حد، لم يكن مكتفيًا بما وصل إليه، بل يستطيع كعب بلون الورد أن يغير اتجاهه، غير ما عرف عنه من غدر، فلا مانع أبدًا أن يقوم بتسجيل مكالمات أصدقائه، وكذلك تسجيل المناقصات والمزادات والدخول فيها بأسماء أخرى فقط ليبتز أصحاب المصالح ويخرج من كل عملية وقد زاد رصيده بعدة أصفار، يعني مزاحمة، وبلغة السوق: (التعريق).. والذي زاد وغطى دور العميل المزدوج الذي لعبه في إحدى شركات البترول لصالح شركة أخرى.

وبلغ به الحال إلى إيقاع زوجة أحدهما في شباكه، لتسهيل دخوله المنزل وسرقته للمستندات، كل هذا كان يعلم به سيف سليمان ولكن الذي لم يعمل له حساب أن يسخر منه هو وماجي وتعود بينهما المياه لمجاريها ويلبس هو العمة، ولم يعمل أحد حساب للوشاية وكيف أنه على مسرح الحق والباطل الأزلي لا يجوز الاستهانة بانتقام القدر العنيف، وتسند أدوار البطولة لمن هم أقوى، ويتحول المؤدي إلى كومبارس، ويستحل ماله وعرضه بل وأحيانًا يدفع ثمن مكره.. وقد يكلفه حياته.

ورغم أصوات نغم نشوى الكامنجات الذي يعلو في الأنحاء تشدو في صمت مقامات رد الجميل "اكتب يا صاحبي وصيتك

لا مكان للحفاوات الزائفة في هذا العالم ولا مكان لمن يدس وجهه ذات مرة في عرين الأسد".

من الذي سوف يتركه بعد ذلك يمضي، أُشعلت نارٌ .... وامتلاء المكان برائحة............ رائحة أخرى.

فصل من حكاية أخرى في نفس تلك الليلة.

كانت ليلة من ألف ليلة وليلة..

- الحفلة حقيقي كانت هايلة..

هكذا بدأت لولة حديثها معها..

- والمنيل على عينه كان عايزك في إيه تاني؟

- عايزني أسافر معاه بكرة؟

- مش عارفة راح أعتذر لسيف بحجة إيه؟

- خلي بالك أنتِ بتلعبي بالنار.. ومراته مش سهلة – صحيح هو بيحبك بجد على فكرة!!!

- لازم تعرفي توازني أمورك.

- مش عارفة شكلي أنا اللي حبيته بجد...؟

- وماله هو ما فيهوش حاجة تتعايب ومش مخليكي عايزة حاجة..

- الليلة معاه بألف ليلة وليلة..

تجلجل في سماء الغرفة ضحكاتهما..

تتبادلان القفشات والضحك حتى موقف السيارات...

لولة: اسمعي وميعاد العطا والمناقصة بكرة؟

ماجي: شوفي نانا ممكن تيجي معاكي.. ما هي تعرف المهندس صفوت كويس قوي..

لولة: يعني إيه؟

ماجي: يعني.. يعني.. أنا شفتها معاه أكثر من مرة

فيصفر وجه لولة فجأة و تتجهم:

- يعني ما حدش فيهم قال لي يعني...

ماجي: إياكي تقوليلي يا لولة أنتِ ما تفوتكيش فاية.

ثم تفتح باب السيارة، وتدلف إلى عربة أخرى مطفأة أنوارها...

تعض لولة على شفتها: بقى معقول...

تمسك بموبايلها: الرقم الذي طلبته ربما يكون مغلقًا...

حاول الاتصال في وقتٍ لاحق..

بدأ الشك يتمكن منها: (ده يبقى نهاره أسود...)

لكن أنا أقدر أعمل له إيه، شاب، وسيم.. يعني أنا أنظفه وأدخله الدنيا من أوسع أبوابها، وأتاريه بقاله كام مرة يتهرب مني: (أصلي تعبان شوية)، (مرهق)، (كان عندي اجتماع) أهو يشوفله يومين، بس مش على حسابي أبدًا... ونانا الموبايل لا يفارق يدها، وتظهر دائمًا لها كل المودة، يا سلام على ذوقك يا لولة (كلامك معقول) وتتقرب منها المرة تلو المرة.

وتدور بالسيارة وتتجه إلى زيزينيا على البحر الشقة التي دفعت له ثمنها، وسكن هو فيها..

في الصاله تنتظره، تنهش أرجاء المكان ذهابًا وإيابًا، تفتح الأدراج.. تفتش عن صورة، خطاب، أى أثر، تخونها أعصابها..

ترتمي على الكرسي: ترقب أنفاسها بتوجس محسوب بعد العمر ده كله: تختلج شفتاها بل ويرتعش جسدها كله، فبدت في المرآة التي تواجهها مثل عجوز أنهكها العمر، رغم كل العناية التي توليها لجسدها، يزحف السن عليها، تتعاقب دقات قلبها، وتأكلها الغيرة، الساعة الثانية صباحًا ولم يعد...

وتتذكر أول يوم التقت به: في مكتبها القديم في محطة الرمل أعجبت به من أول وهلة، هو ده اللي راح يعوضنى عن كل حاجة، في مرض أمه لم تفارقه ولا تفارقها وحتى زواج أخته، ومع الوقت أصبحت هي بالنسبة إليه السكن والملاذ، لعبت دور الأم، الزوجة، والحبيبة.. لكن.. لأ..

أخفت عن الكل هذه العلاقة "ده الحب الحقيقي في حياتي"

صحيح أصغر مني بكام سنة، لكنه راجل بمعنى الكلمة، لو سألته راح أخسره...

صوت كعب حذائها على الباركية ودخان سيجاراتها الواحدة تلو الأخرى يقطعان معها رتابة الانتظار..

دوران المفتاح في الباب أفزعها.. اعتدلت في جلستها..

لبست حذاءها... ورسمت ابتسامة باهتة على شفتيها.

صفوت: الله.. أنتِ هنا؟؟

لولة: حاولت الاتصال بيك، التليفون الظاهر فصل..

تقترب منه بخفة، بدلال لا يتناسب مع هيئتها الجادة، تحوط عنقه، وتقبله، تعاين منظره: الحذاء اللامع والقميص الأبيض ورباط عنقه المفكوك، ورائحة البارفان التي تعبقه تثيرها أكثر فأكثر..

صفوت: إحنا مش اتفقنا نتقابل كل خميس وسبت؟!!

لولة: قلت أعملها لك مفاجأة..

يعطيها ظهره بمنتهى البرود والسأم.. تقترب مرة أخرى.. تتشبث بجسده، تتحسسه، وتتشممه وتبدأ بالبكاء والتوسل، وتنحدر دموعها...

يرتعش شاربه: وبصوت رخيم يرد: إيه بس الحكاية؟

خليني معاك الليلة.. وتبلغ توسلاتها حدها، حتى أنها كثيرًا ما تنحني وتقبل يديه وهي تبكي، يزداد جنونها اشتعالاً، وفي أقل من لحظة: تتعرى كاشفة عن ثوبها: جسدها المترهل الممتلئ.. البض تنقض عليه.. تخور مقاومته الواهنة، ويثيره ملمسها....

تلاهثا، وتلاحقا، حتى غابا في ظلمة عميقة لا يعقبها زفير أو شهيق...

ينسل من الفراش وينسحب بهدوء إلى حجرة المكتب، لا بد أن يضع حدًا لها...

لن يدفع ثمن ضعفه مدى الحياة..

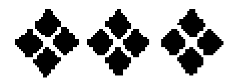
وها هي صورة ابنة سيف سليمان، تداعب خياله، مرحها الطفولي، وعيناها الصافيتان، جميلة وهي جميلة بمعنى الكلمة..

الليلة سيف لمح له: أنت دلوقتي أصبحت الراجل بتاعنا، أنت عندي بصراحة أحسن من حسام الزيات، فيه كلام كتير عايز أقوله لك لا يعيب الراجل علاقاته ولكن..........

غيّر عتبتك يا صفوت.. المستقبل كله قدامك..

ويربت على كتفه: همتك يا بطل معانا في المناقصة بكرة...

تبكي في الظلام امرأة في صمت وهي تكاد تودع من عشقته، وتعلم أنه لن يعود، وها هي تواري في صدرها ضعفها المنبوذ وتردد ما يشبه الحسرة والعتاب "يا رب أنا عملت إيه"؟؟



فعلاً دي حكاية ألف ليلة وليلة.. وكأنه شريط سينمائي قديم يعود للوراء بالتدرج ببطء يفتح الجروح التي اعتقدنا أنها شفيت إلى الأبد وعندما قرأت لي الفنجال ذات مرة: أنتم طبعًا عارفين مين.. لم أصدقها.. وضحكت أنا كمان، وجلجلت ضحكتي في كل الأنحاء، ما تبصيش في المرآة كتير.. أمامك عدة خطوات..

(الشخص اللي أنتِ زعلانة منه روحي صالحيه...)

ما تدوريش في هدومك القديمة – وتفكري في اللي فات..

فيه اتنين عاملين حبايبك بس ما تأمنيش..

صلّي بينا على النبي..

إيه راح ياخد الريح من البلاط؟

دراسات عليا في علوم تنمية المجتمعات راح يفيد بإيه؟

نزاهة وشرف يعني قفل مسوجر..

لا راح يعدي رشوة ولا هدايا.. ولا ليكي يا ست البنات في سكة خد وهات..

خلاص أهي الحكاية واضحة:

وجـودك أصـبـح مـالوش لازمـة، لازم تغـيري المكـان علشـان ممكن تبقي شماعة، وتلاقي نفسك لابسة تهمة...

ما كفياكي اللي تقال...

وياما اللبس مداري بلاوي... "وسلمولي على أخونا السقا اللي مات"

مات من الغيظ، إياك الضغط يعلى والدوار والصداع.. خليهم لحاجة أقوى..

ياما في جراب الزمان مفاجآت..

افتكر كلامها ليَّ أضحك وأقول كان عندها حق وكل كلمة قالتها لي تستاهل أرفع لها القبعة.

تعرفوا دي كانت مين – دي بقى كانت........... ستوتة

كل شئ كان مكتوب ومقسوم وحذرتني منه كثيرًا قارئة الفنجان، حاملة الودع فعلاً دي حكاية ألف ليلة وليلة، ورغم أني لم أعد أحتمل تلك الأحاجي والألغاز أكذب نفسي تارة وأكذب ما تراه عيني تارة أخرى، بكل صراحة أحاول أن أبرر الأفعال رغم أن المحاذير والتوقعات تبدو منطقية ولكننا نقف أمامها كثيرًا ويصبح التخاذل سمة، وتحضرنى عبارات الكاتب الكبير جلال أمين في ظل عملية الترويج والتسويق ليس فقط للسلع والخدمات بل وأيضًا للمعلومات والأفكار والنظريات، يصبح من الصعب التمييز بين الواقع والخيال، بين الحقيقي والزائف، ويصبح من السهل إخضاع الناس لمشيئة المستفيدين من النظام.

غيوم تركض خلف غيوم أخرى.

تحت الأوراق تطالعني جملة في "أخبار الأدب" عدد ٧٥١ التي أتابعها بكل شغف كل أسبوع:

أصبحت قضية الرشوة الكبرى بوزارة الثقافة علنية، وكشفت التحقيقات أن المتهمين حصلوا على رشاوى وصلت إلى ٩٢٨ ألف جنيه في صورة أموال سائلة وهدايا عينية وتشطيب شقق.

حتى هذا.. كل شئ أصبح ملموسًا، أشرف القضايا، أنزه الساحات، من منا سينعي الرفات؟ يمثل الصدق من منا؟

"فساد المشهد الثقافي في مصر"

وعندما ضج المشاهدون احترق المسرح بمن عليه.


16.2.2008

الفصل السادس

جمرة النار

الأبراج النارية:

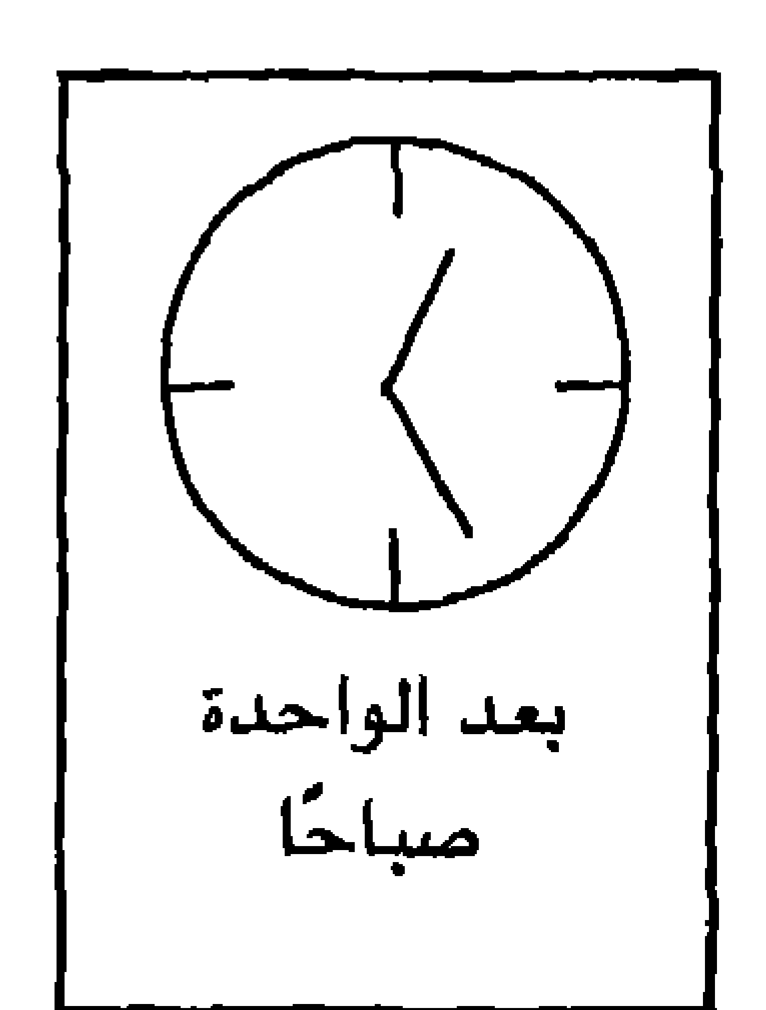
تسـلط - غطرسـة - زهـو - تبـذير -

يكرهون الانتقاد

الغيرة العمياء - شديد الغضب

يؤثر مصلحته على مصلحة الآخرين

اصحاب حضور لافت - مسيطر.



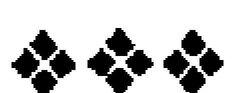
من يخمد النار، من يطفئها، وكأني أمشي على جسر من الجمر.

مثل فيلم المؤامرة، أمسك خيطًا واهنًا أتعلق به، لا بد من وجود الأوراق في مكانٍ ما، أدلة ما، شئ ملموس، يخرس التساؤلات التي باتت تلعب برأسي لكي أمنح ذهني فرصة للتفكير والاسترخاء.

كنت أحيانًا: أذهبُ إلى البحر عندما تنتابني حالة الضيق هذه... كنت أخلد إلى الطبيعة، أعود لمراجعة نفسي وأوراقي التي سقطت مني الواحدة تلو الأخرى ورقة الحب... ورقة العمر وورقة الصبر... والحق أنى توهمت أني قد تعلمت فهم الكثير، ولكني قضيت في الأوهام العديد من الخيبات، كنت مكتفية بالمشاهدة لكن الذي فاتني أن أتعلمه: أني ما دمت حية فأحمل وزر المشاركة.

آه لو علمتم الغيب....

من منا كان يتخيل أو يتصور تلك الفجيعة، هل ما فقدناه لم نكن نملكه أصلاً.



تتهادى السيارة في طريقها إلى العين السخنة.. يمسك بيد مقود السيارة، وبالأخرى يدها... يقبلها من حين إلى آخر..

- عارفة أنا لما شفتك مع سيف اتجننت.. وقلت إيه الحكاية.. راح تشوفيلك شوفة تانية.. وإلا إيه؟؟

- حرام عليك أنت عارف إن كل ده شغل مش أكثر.. واللي في القلب في القلب...

- بصراحة أنا مش عارفة إزاى طاوعتك المرة دي كمان..

- يعني ماوحشتكيش؟!

اقتربت منه بحذر ثم ضمته إلى صدرها وقبلته بين عينيه:

- وحشتني قوي..

شاليه العين السخنة فرشته بنفسها، بسيط.. وسهل وأنيق.. حجرة معيشة كبيرة.. وبها مطبخ على الطريقة الأمريكية وبار.. يطل على الممشى المؤدي إلى البحر.. وحجرة نوم فسيحة بها حمام (وجاكوزي).. وحجرة أخرى للضيوف، عش هادئ.. بعيد عن العيون.. والكلام...

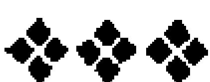
- أنا محتاجة آخذ (shower).

تغيب لدقائق قليلة – ثم تخرج مثل بطلات السينما المصرية في مشهد أثير.. فوطة تغطي الرأس – وباشكير – وكل خد عليه خوخة يقترب منها بسرعة على عجل..

- تضحك وتفر منه إلى الحجرة: أمامنا متسع من الوقت!!

- نتعشى الأول.

- لأ.. مش مهم...



تشعل لولة سيجارتها وتتسع حدقتها، وترى المشهد في تلك الظلمة. كلام ماجي عن نانا وعلاقتها بصفوت أثارها جدًا، ربطت الخيوط بعضها ببعض، واتضحت لها اللعبة على الفور، وأتاري عبد العظيم كل شوية يسألها: (هي نانا دي بنت مين؟ زوجة مين؟)

كان صفوت يرد عليه بكل بساطة، لم يدُر بخلدها أنه كان يعرفها، أو أنها توطدت أواصر الصداقة بينهما إلى ذلك الحد، ورغم أنها بدأت تشك في تواطؤ نانا مع عبد العظيم أكثر من مرة، مسكينة يا ثناء طلعتي مغفلة أنت الأخرى.

لم تتخيل أنها من الممكن أن تلعب على الحبلين في نفس الوقت، كرامتها لا تسمح لها أن تسأل صفوت مثل تلك الأسئلة، لكنها بذكاء الأنثى صوبت اتجاه فوكس العدسة جيدًا.

كيف استطاعت تلك القروية الساذجة أن تدخل بنعومة إلى الدائرة، أول الأمر صاحبت أميرة، واستفادت كثيرًا منها، (إزاي تلبس، إزاي تتحرك، إزاي تفرش بيتها)، لدرجة أنها بدون أن تشعر تتقمص أحيانًا شخصيتها، والكل كان يعلم ماذا تضمر في نفسها ناحيتها.

كيف لعبت لعبتها بكل مهارة، تتحدث عنها وتلوك اسمها وسمعتها، كراهيتها لأميرة غير طبيعية، أنا ما عليَّ إلا أن أتفرج من ناحية تتزاح أميرة ومن ناحية تانية تكشف لصفوت ألاعيب نانا.

لولة: شفت يا صفوت نانا عملت إيه في أميرة، وكيف استطاعت أن توقع بينها وبين أصحابها.

فيرد صفوت بشئ من التوجس: يا ريت يا لولة تبدئي تقللي من الشرب شويه وتقللي من قعدتها.

لولة: ما تخافش هي اليومين دول بدأت تلزق لبنت سيف سليمان، ومركزة مع عبد العظيم.

يشيح صفوت ببصره لبعيد، وتنتاب قلبه الغصة.

شك لولة كان في محله، لكن هل اكتشفت ما يضمر قلبه، هل لمحت نظرته ناحية جميلة، وحرص سيف سليمان على وضعه بجانبه على المائدة وفي كل مكان، أهي إشارة ما، ترتيبة ما، ولأنها امرأة محنكة، أدركت بفراسة الأنثى إعجاب صفوت بجميلة، ولا يعكر تلك الصورة إلا وجود نانا في منتصفها، وضعها غريب جدًا، وتتضح عيناها بالمكر، وها هى تتبادل نظرات ذات مغزى مع دكتور عبد العظيم أيضًا، الغيرة هى آفتها الكبرى، إذن تقربها من جميلة له أكثر من مغزى.

وتغتنم لولة الفرصة تلك الليلة:

- إيه ياصفوت أنت مش عاجبني أبدًا.

فيطرق برأسه ويسألها بغتة: لولة أنتِ بتحبي لي الخير

لولة: طبعًا يا صفوت ودي عايزة كلام.

صفوت: أنا بفكر في الارتباط..

لولة: حد يا ترى أعرفه.. وتعقب بصوت بارد: جميلة، وتستطرد بكل هدوء: يعني لو البنت عجباك وماله.

صفوت: ده للمصلحة ارتباطنا بسيف حيقوينا أكتر وأكتر، ثم يقبل يدها، يا حبيبتي مشاعري ناحيتك لن تتغير.

لولة: يعني حنفضل زي ما إحنا.

صفوت: فيسكت لأقل من ثانية: زي ما إحنا.

❖❖❖

أنظر من خلف زجاج سيارتي إلى البحر فأرى على الرمال البيضاء بعيدًا يمر كعابر عاجل سربًا من الغربان يحمل لنا أنباء، دوام الحال من المحال.

يطالعني البحر بهدوئه المريب، إنه السكون الذي كان يسبق العاصفة، اجتماع مجلس الإدارة كان هو أيضًا عاصفًا.

استقبلتني لولة أسوأ استقبال: (اللّه أنتِ حضرتي أخيرًا، أنا عايزة أعرف فين تقارير حملة الدعاية الأخيرة)، (ومين بقى اللي أعطاكي الحق تعلني في الصحف إن إحنا مش حنكمل ماكيتات مشروع المنتجع السياحي) لإن مكانه غير مناسب، وتوقيته غير مناسب.

وتعقب ثناء بدهشة: أنتِ عملتي إيه يا أميرة بالضبط.

وتنفجر بغيظ نشوى: أكيد أنتِ مستفيدة.

يفتح عبد العظيم فمه ويطلق القنبلة: طالبة كام يا مدام أميرة علشان تمضي المرة دي، كلنا عارفين إنك لكِ سعر والمرة دي لن نسكت، يا ريت تخلي مكتبك.

لا تسعفني كلمات الرد، أُخذتُ على غرة، تتوالى عليَّ الصفعات، وتتوالى الاتهامات، أخرج من الغرفة وأنا في شبه حالة ذهول، أدخل مكتبي، دوار.. أقع.. أفقد الوعي.

أرتجف فأدثر نفسي بالشال مرة أخرى، لن أعود إلى تلك

الظلمة التي أحاطتني شهورًا عدة.

أضع القصة أمامي وأواجهها، وأخرج ما يؤلمني وأحاول أن أعبر المحنة، كما علمني إيقاع البحر، كيف أعبر المسافات عومًا من برزخ إلى برزخ، ومن الليل إلى الفجر، كيف بنينا يومًا عشًا ومسكنًا في أجمل بقاع الأرض، في داخلنا شعلة من دفء.. أتنهد وأعود أرحل إلى تلك الجزر التي ذهبتُ في ذلك الماضي البعيد إليها.

تذكرني وأنا في تلك التجرية وضراوة وطأتها.. كيف كنا بالقليل نفرح.. مثلما نرحل نحو تلك السماء... نحو تلك الأرض.. نحو جزيرة المرجان.

"في قلب تلك الرحلة تظهر حكاية وراء حكاية: وأحيانًا نعيشها مرة أخرى...!!

يا لروعة تلك الوشوشات!!

وأعود إليه.. وإلى همس كلماتها الساحرة، تحكي صاحبة الودعة عنها: أفتح على تلك الصفحة أو بالأصح تلك الحكاية: "جزيرة المرجان":

..ظهر اليوم فاجأني وأنا أعد الطعام في المطبخ، أفتح باب الفرن، وأتأكد بعد غرز السكين الحاد في لحمه السمين أنه قد دخل في طور النضج وأستدل على ذلك أيضًا باحمرار (وش) الصينية، يقف مرجان ورائي، يقبع متأهبًا،

يحرك ذيله، ينظر لي، ينتظر دوره، كل لـه دور..؟!! أضـع بعض قطرات من الزيت، تفوح رائحة الكرفس والكمون والزعتر، تفرد الكابوريا أذرعهـا وتتمـدد، تجتـاح أجـواء المطبخ هالة من الـدخان الكثيـف " لعـل الـريح تحملنـي وتزرعنـي في تنقلهـا... أعـبر المسـاحات... أضـيع مثـل الطيور" "حلو أن يضيع المرء بين الحـين والحـين" أعـود إليه، وإلى تلك الديار، هناك شمس وصيف رائـع أخضر، أذهب إلى موج البحر وأتبـع ظـلاً يـتلألأ مثـل الـذهب.. جسرًا ممتدًا، تلك الجزر التي حفظت أسـماءها عـن ظهـر قلب، علمني إياها، وركبت معه في زورق حب عليه مـن الشوق شراعان.

"أبحرت في العينين الصافيتين إلى جزر المرجان" ما ندمت يومًا.. ولا حبنا هان.. وسكنا بيتًا يشبه دوار العمـدة، مـن الحجر الهاشمي والجرانيت الأحمر، مدخلـه مـن الخـوص والسعف، ومن نوافذه التي تشبه القباب العاليـة يسـحرك المنظر الخـلاب.. جبـال يغلفهـا الضـباب.. البحـر أزرق يحضن في رفق الرمال البيضاء.. تحط على صخوره الطيور

المهاجرة إلى بلاد القمر.. وفي القاع أسماكه تتلون بألوان الطيف حمراء.. صفراء.. مخطط أسود وأبيض.. منقط بالأرجواني والأخضر.. تسبح في مجموعات.. تجدها تخرج وتختفي داخل تجاويف الشعاب، بعضها سام وبعضها ينظر إليّ بنظرات مبهمة.

تقاسيم وجهه أخذت حمرة شمس المغيب، علا المشيب سوالفه السوداء وتركت الأيام نتوءاتها على ملامحه وظلت قبضة يده قوية يشد بها أزري، كم ضحكنا.. سخرنا من الأيام!! لا نحمل همًا ولا شجنًا.. حمل أحزاننا إلى بعيد هديرُ الموج على الشطآن، يلبس الزوار عقودًا من الورود والياسمين، في مداخل الأكشاك تمتلئ الأصص بالأزهار، وعند الممر تشم رائحة شواء القرديس، الناس هناك يأكلون بلح البحر والمحار، يرقصون تحت ضوء القمر، يغنون لليل حتى النهار كيف أخشى شيئًا وأنا بهذا الجوار؟.. وتمنيت لو عشت هناك دومًا.. ولكن كُتبت على جبيننا الأسفار أحمل في قلبي قطعة من المرجان.. ألتفت ورائي: أقذفها..!!..

هل يستطيع المرء أن يقتطع صورة من قلبه، هل استطعت أنت؟
هل استطعت أنا؟ وهناك بعيدًا ترمقهم نجوم الليل وترمقنا......

ليله من ألف ليلة: وهو العمر فيه كام ليلة: عاشاها وتمتعا بأنسها كما لم يحدث من قبل، تكاد الشمعة الحمراء أن تنطفئ، يخفت ضوءها شيئًا فشيئًا

تفتح عينيها ببطء: إنه لا يجعلها فقط تسافر.. تتوه.. ترحل..
بل يعذبها ببطء.. ويسبب لها ألمًا جسديًا ونفسيًا..
صار يلازمها.. استعذبته رغم أنه ينهكها..

خدرٌ لطيف يطغى عليهما.. والألم كالثمل هو مخفف هائل لقلق الواقع بكل ما فيه..

تراقبه وهو يغط في نومٍ عميقٍ – فعلاً حسام جذاب جدًا..
رجل بمعنى الكلمة.. ولكن ما بينهما سدٌ منيعٌ.. حاجزٌ لا تستطيع أن تتجاوزه وربما لم تفلح – رغم محاولتها - فتح هذا الموضوع صراحةً...

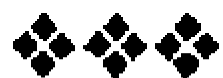
لا، حسام عمره ما حيتجوزها...

يتقلب ببطء يفتح عينيه على تلك الحورية النائمة بجواره..
يكشف البيبي دول البمبي أكثر مما يخفي، يسحبها ببطء..
ويكمل حديثًا بدأه من فترة..

طريق العين السخنة أصعب بكثير من طرق كثيرة بسبب الانحناءات والدوران.. واقتراب التلال والجبال.. شريط ضيق رغم محاولات توسعيه عدة مرات، ملتوي.. وشديد الانحناء،

وفـي العـودة بـات كـل شـئ ثقـيلاً، الهـواء.. القلـب.. الهـدوء.. الصـمت يلفهمـا صـمتٌ حـذر.. صـمت الوحشـة والـكآبة هـكـذا فجأة، ينحرف مسرعًا.. لا بد أن يعود بها إلى القـاهـرة... قبـل أن ينتصف النهار.. يختلس النظر إليها.. ويسرح لأقل من الثانية فـي أقدامها البيضاء الصغيرة.. لا ينتبه إلى المنحدر أمامه..

وتغبش أنوار الشـاحنة فـي الطريق المعاكس عينيـه "حاسـب حاسـب" ثـم صـوت ارتطـام هـائـل.. تنقلـب العربـة عـدة مـرات.. عجلات تدور فـي الهواء.. انفجار هـائل..



كلما أتذكرهما أحس بغصة هائلة.. تقبض على أنفاسـي.. وتطن فـي جدران مخيلتي طنينًا أليمًا...

كما تعود الشمس والقمر، كما يعود الفيضـان والجفـاف، كما تتناوب الحرارة والبرودة، الريح والهواء، الألم والفرح..

كنـت أعلـم داخلـي أنهـا هـكـذا سـتكون النهايـة.. نهايـة الطريـق المختصـر للأحـلام المسـتحيلة.. لا تـأتي الفرحـة خاليـة أبدًا.. بل تأتينا دائمًا مخضبة بالدماء..

يفيض قلبي بالأسـى عليهمـا... وربمـا أشـعر بينـى وبـين نفسـي بنوع من الرضا الشرير، بنوع من الثأر غير المطلوب ولا المحبـوب.. لكنه لا فائدة.. أخذهمـا فـي قبضته إلى الأبد سـارق الفرح:

وفـي ذلك السـرادق المهيب.. أنصت إلى كلمـات الله وأتسـاءل بـيني وبـين نفسـي وأنـا أتـابع الزوجـة المكلومـة المصـدومة.. أو هـكذا كنت أعتقد.....

ووسط الزحام أقوم لأسلم عليها وأواسيها، فيترامى إلى مسامعي حوارهما:

- بدا الأمر كأنه حادثة.

- أنا يا هانم في خدمتك دايمًا.

- أشكرك يا سيف باشا، جميلك لن أنساه أبدًا.

- لا تجعلي الحزن يحاصرك، (إحنا في انتظارك.)

تشي العيون بما يختلج في الصدور، نظرات زهو الثأر، وتصبح رؤية القناص لفريسته الجديدة فيها شئٌ من التواطؤ.

من انتصر؟ من انكسر؟ أنا.. هي؟... هما... نحن؟

وكالعادة لا إجابة لسؤال جوابه فيه....

هناك جرح تاركٌ أثرًا.. يجعلني أرحل.. أتباعد.. أتلاشى في دمعات المطر... وأخذت عهدًا على نفسي ألا أعود إلى تلك الساحات مرة أخرى..

وتمر الأيام وأنا لا أنسى ما خلفته في نفسي تلك الحكايات وتتعاقب الفصول.. وهأنذا مرة أخرى أعود أفزع من صوت همهمات الريح ونقرات المطر على الزجاج – يلازمني الوجوم ولم يبق لي إلا صقيع الرحيل في هذا الشتاء الطويل.. فأهرع إلى دفء صفحات الكتاب لعلني أنسى..

وكأنه شريط سينمائي قديم أبيض وأسود..

وفضاء القلب يعود للوراء يفتح الجروح التي اعتقدنا أنها شفيت إلى الأبد..

(إيه اللي رماك على المر؟ اللي أمرّ منه..)

والبخت قرأته وشفته من سنين ملهاش حصر.. كانت هواية..

يمكن خوف من المجهول.. خوف من الفراق.. خوف وبس..

سكتت والحزن في عينيها تتأمل فنجاني المقلوب: وقالت لي:

- "ياه كل ده حزن" "كل دي دموع" "إيه يا بنتي"؟؟)

أين هي الآن؟ وأين أيامها؟ مش بس الحكايات فيها غرابة زى ألف ليلة وليلة.

الذي عشناه أغرب بكثير...

"قعر فنجالك أسود وده معناه أنتِ مكلوبة لكن لا تخافي فيه ورقة بيضا جيالك...

وفيه رزق في الطريق - علامة سمكة -

فيه سكة ومفتوحالك... قلبك مقفول قفلة سودة...

هُدهُد يقف لك على حافة الفنجال: خبر حلو بانتظارك

طريقك راح يفتح بعد القفل وتفتكريني

فلوس منظورة وسنجاب واقف يتلصص عليكي لكن ربنا راح ينصرك عليه... وراح تعومي زي البطة في بحيرة في مياه.. وراح تروحي مشوار... لحد مكان... وتعاودي تاني للأحزان أيام.. ويجيلك حمامتين.. طيور سلام..

على طول عندك أحداث.. وناس.. كأنك في غابة فيها كل أشكال الحيوانات: أسد ونعامة وفهد.. وطيور كتير في السماء لونها أبيض زي بقية لون الفنجال..

راح تعدي جبال.. ومن رحلة لرحلة.. راح تلاقي الفرح في آخر المطاف.. وتقولي صدقتي يا أم ألطاف... وأتعلمين سوف تنتقلين إلى مرفأ قلبك كما كنت تبغين، ستصنفين بين النجوم حينما يعلو اسمك في السماء.

يومها اخترت ودعة من الودع.. أوشوش وأبث إليها نبض قلبي.. تختلج نبرات صوتي.. وأنا أحملها كلماتي ولا أشكلها تخرج من حيث لا أدري.. أبث لها أشواقي وما زال كف يده يحضن كف يدي.. وكيف أسدل بيني وبينه تلك الغلالة.. لأ حافظ عليه حتى من ضعف إرادتي حين يشرد بنظره نحوي..

سكن مثل طفل صغير في حضن أمه، أحضنه، فما عدنا ندري، تختلط أنفاسنا.. دموعنا.. حمرة تنتاب وجنتي.. وهيام المآقي عليها تحكي.. وكيف أن اللحظة جاءت فريدة نادرة.. وكيف أعيش بقربه وبيننا تلك المسافات...

أحمل صورته حيثما أمضي... ما عدت أخشى لحظة فراقنا..

أحمل ملامحك في قلبي أتنفسك.. أحيا.. أفكر مثلما تفعل دماؤك تجرى في عروقي.. أعيش بك.. وفيك.. وأرى تلك الدموع في عينيك – وحرصك عليَّ فأبكي بدلاً منك..

مفردات اسمك: هي مفردات الحنان عندي.. قلعة راسخة في الأرض.. ثابته جذورها.. تشق قبابها عنان السماء.. أشعر بجانبك بهذه الحماية.. بالراحة.. بالسماحة..

وعندما أفتح نافذتي على العالم.. أرى الكون مملوء بالألوان.. مثل صاحبة الحكاية.

أرى قصرنا هناك واقفًا منذ الأمد.. مثل الحصون العظيمة، نزيهًا تحمي حمى الأتقياء.

وأجد وجهك يطل... أفر الكتاب وأقرأها بصوتٍ عالٍ تلك الحكاية: حكاية القصر العالي تبدأ حاملة معها أصداء نغم حميم في الهواء وبطلها هائمًا يعود للواقع، في لحظة أتحسس الأوراق وكأن طيفك يتجسد هناك.

..يضبط الراديو الترانزستور الصغير على موجة صوت العرب.. تختلط أصوات المارة على شط البحر مع صوت المذياع

يجد نفسه يدندن معها:

الهوى هوايا... أبني لك قصر عالي وأخطف نجم الليالي...

وأشغلك عقد غالي يضوي لأحلى الصبايا...

يبقى القمر قاربنا والليل بحره مهاودنا...

والنسمة اللي تأخذنا ترجع شايلة الحكاية وأية حكاية؟؟

في الصغر كنا نلعب لعبة مسلية نفرد لها مساحة من الوقت والجهد والتفكير، نشتري لها ما يلزمها، نجمع لها أندر القواقع والأصداف، بل كنا نتفنن في عمل حواجز وأسوار

من العوامات وبقايا الصنادل القديمة نستخدم أدوات بسيطة للبناء: جردل، ورشاش ماء، أشكال من القوالب الغريبة كل ذلك لنزين به قصرنا الشامخ على الرمال..

وتختلط بي الأفكار، نعاود المحاولة مرات ومرات، وهكذا حتى ينتهي اليوم، ونحدد مكان صرحنا بالأعلام خوفًا من أن تزيل مكاننا آثار أقدام الزوار.

أدمنت حبك مثلما أدمنت في البحر الدوار، أجد نفسي أكرر نفس المحاولة، أبني قصرًا على الرمال مثل الأطفال، قصرًا ذا حجرات واسعة، تسكن فيه أميرة.. أميرة الأحلام.. تتجول فيه باسمة الثغر، تنور ضحكتها فيه كالنهار، قصر يطل على شطوط البحر الواسعة، نوافذه كثيرة.. فريد في بنائه.. تقف وتحط فوق سطحه الطيور.. تظلل أركانه أشجار النخيل.. يستدلون عليه بالقمر.. وجه القمر في الليل دليل.. تطل عليه شمس الأصيل.. الموج يعانق الصخور.. تلمع قناديل النور كاللؤلؤ المنثور أزينه لك بالكهرمان، أزهار النرجس والريحان قصر على الرمال.. رمز للأمان.. مرسى للعمر الممدود.. مرفأ لليخوت.

موسيقى تنبعث في المكان، تسري في الأبدان نحيا بها وتحيينا، وصرت أبني من رماد الحلم حلمًا يكفينا.. يحمينا عندما تشتد العواصف.. يأوينا في دفء الوجد..

نجمع ما تبقى منا من أشلاء، ما كنت أظن أنه يومًا سينهار، يطير كما تطير الأوراق، يتلاشى في سحب الغمام، تتناثر حبات الرمل بعيدًا.. بعيدًا.. تتوارى.. تتفتت.. تتبعثر في الأنحاء.. تتعثر فيها الأقدام.. ويصبح قصرنا مجرد بقايا أطلال..


GETTY IMAGES

الفصل السابع

سحابة الغفلة

غفلة الريان يحسها الموج أيضًا

وتنقل الغيوم أخباره في الأثير

يخشى أن راكم البحر أرقًا

لكنه حين استدار لينظر

حذرته الدلافين من الركضة الواثقة...

فالماء يرتاح وهلة.. لو أحب القيام

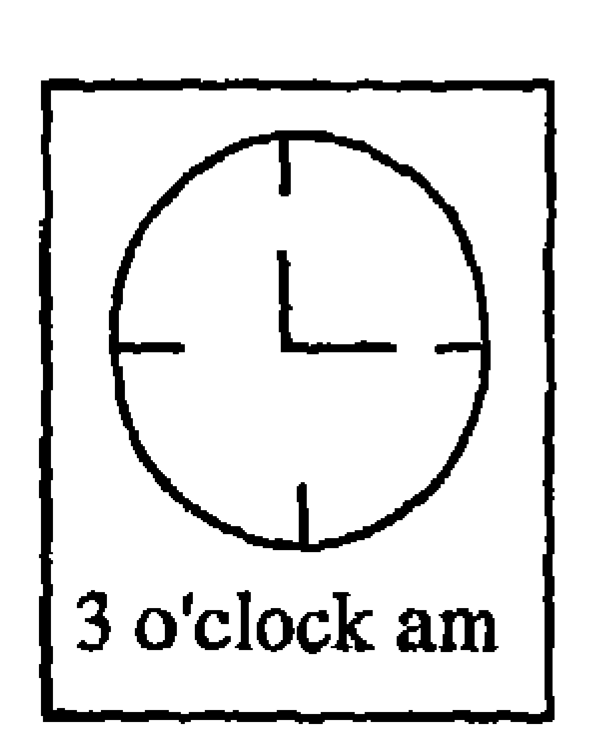
وفي غفلة قصيرة تأخذ ثانية واحدة عمرًا

طويلاً... وتمضي

ديوان "معجم الغين"

د. علاء عبد الهادي

:



كيف غفلت عنك...؟ وكيف غبت وصار المسافر داخلي وهو على أهبة الرحيل يبحث عن الضفاف!!

ورغم أن كل الدروب إليك تؤدي...

وكل ما حولي يحثني أن أعود – بعد تلك الغيبة – بعد طول الغياب – كفى بنا مع الزمن التحدي.. في تلك الليلة أكاد أهذي، أعيش كل ما مر مرة أخرى.

معك لا توجد أنصاف حلول، أنصاف مواقف،
ولا أنصاف أحاسيس، وكل يوم معك يكون انقلابًا
أو لا يكون..

طبعت كلمات نزار تلك يومًا في قلبي، كنت تقولها لي، وحتمًا كنت تعني كل حرف فيها...

ولا تزال الروح تحمل وشم الختم، يكاد الليل يسدل أستار دياجه ويكاد النبض يسابق في الضباب الحنين.

"فقد كان النسيان ذاكرة" فجأة رأيته.. انتبهت حواسي الساكنة..

قمت أحرك أطرافي التي تجمدت وتيبست من الجلسة الطويلة، وعلى صوت الموسيقى الهادئة الذي ينساب من شرفة الجيران بقربي أبدأ في الالتفاف، والحركة والرقص لثوان معدودة أغدو حالمة..

وفجأة أصطدم بحافة الطاولة.. يختل توازني، وحتى لا أقع أحاول أن أستند فتشتبك قلادتي في طرف مسند الأريكة، وتتناثر حباتها على الأرض، للحظات ينقبض فيها قلبي وتجتاحني حالة من الذهول!!

جثوت على ركبتي أحاول أن ألملمها وها هي تتعثر الواحدة مني تلو الأخرى، مثل الكلمات بغير مفردات، تتوه بعضها في محطات الشتات، إنها ليست قلادة فحسب.. بل هي تميمة حظي.. أجمعها في كف يدي وأبدأ في لضمها من جديد..

يخطف الشعاع المنعكس منها الأنظار.. تتزين بها في ليلة العرس نساء البدو.. يثقبها الطوارق في وسط لجام الفرسة والجمال ترصع بها السيوف.. رسمت على المعابد ومقابر الفراعنة لكي تدرء النحس.. تطوق معصمي.. وأحيانًا في شريط من القطيفة السوداء أضعها.. أتقلدها في عنقي.. لا أخلعها أبدًا.. ولا يوم فكرت..

أعتني بها مثل أشياء كثيرة أخرى.. ألأنها بلون البحر؟ بلون السماء حين يصفو الجو؟

تتباهى النساء بحليهن وزينتهن.. وأنا أتفاءل بها..

من المدينة المنورة من سوق العنبر.. أحضرت لي أمي واحدة.. تتلألأ في عتمة الليل حباتها.. أتذكره بها عندما يشتد أنين الذكرى.. تواسيني.. أقربها.. أضعها بجانبي.. وللمسها كثيرًا ما أحن... أتحسسها عند أطراف وسادتي وفي الظلام يسمع صدى صوتها..

وهناك في درج مكتبي احتفظت بواحدة أخرى تقبع وحيدة غلفها الصمت قديمة مطوس نحاسها مرسوم عليها عين وحفر داخلها "قل أعوذ برب الفلق".

بيد مرتعشة أخرجها لي من جيب سترته، وأعطاني إياها لكي تحرسني من جفاء البشر، غدر الأحبة، وليالي البرد، وقلة الصحبة، تذكرني به، وقد اختلفت دروب العمر وانعطفت مشاعرنا، كان يمتلكها، تحمل له ابتسامات ودعوات من عيون لا زال يعشقها، لها عنده معزة أخرى، قدرتها وقدرته وناءت حروف الكلمات بحمل المعنى..

يترقرق الدمع في عيني كلما تذكرت قصتها.. والغريب أنها كانت تشبهني أو بالأصح أنا التي أشبهها، ربطت بيننا، جمعتنا، لملمت حروف أسمائنا، أسكنتنا في أعلى مراتب الوجد، وها هي نفسها بعينها من السماء السابعة أطاحتنا، في يوم ذكرى رحيلها، جئت أشاركه لحظة وداعها فإذا بها هي التي تودعنا وتشهد على فراقنا، تبكينا ويصبح ما تبقى منها لي لا يواسينا..

يصبح مجرد خرزة زرقاء...

تشهد على فراقنا، كما شهد على عقد قران جميلة ابنة سيف سليمان الشيوخ والوزراء وكبار رجال الدولة على المهندس صفوت، وصارت حفلة زفاف أسطورية تتناقل أخبارها الصحف والمجلات، كروت الدعوة كانت من إيطاليا مزينة بالكريستال والفضة، الفستان أعده أشهر مصممي الأزياء في لبنان يشبه فستان الليدي ديانا عروس القرن العشرين.

حضرنا جميعًا أنا وبقية الشلة، أو الذي تبقى منها، وها هي العيون تحملق مرة أخرى في ذلك الخواء، أو في تلك العيون التي يشبع ناظريها الشهوة، رغم الياقات الناصعة البياض وربطات العنق السنيية والفساتين التي تكشف أكثر مما تستر والأقراط والكعب العالي وامتزاج العطور بعضها ببعض "بوازون"، "جاكومو"، "دولشي كبانا"، ورغم الضحكات والابتسامات المتبادلة رحت على مهل أتأمل وجوه المحيطين بي عند ظهور الراقصة المشهورة، وبدا لي أن تفحص الناس في تلك اللحظة يصبح أكثر تشويقًا من التابلوهات الراقصة، في لحظات الانفعال، تسقط الأقنعة وتزحف العيون بتباطؤ على كامل جسدها الذي يرتعش على إيقاع الطبول الصاخبة، الكل يقترب ليحظى بنظرة إعجاب منها، يتلصص على اهتزازاتها الناعمة، وقطرات العرق التي تتدفق بعذوبة على ثوبها الشفيف "كانت تبتل" أنفاس تختصر لحظة الاشتياق والشهوة في التواءات ماجنة بدعوات صريحة من الجسد الذي يرتفع في الهواء ويشتعل على قرع الكئوس، كانت تتلوى مثل الأفعى التي تبدل كل لحظة جلدها والفرجة تحلو أكثر وأكثر وتعود بفقرة أكثر فجاجة من الأخرى، يصبح الرقص هنا حالة انتشاء خاصة وتتصاعد في ظله نزوات مارقة لا تعرف أين ولا متى تتوقف وأدير رأسي حتى لا أراها ولا أراهم، ها هو عبد العظيم لا يستطيع أن يجلس محله.

تقف نانا ونشوى أول الصفوف، تدخلان هما أيضًا في الحلبة، سليم بيه لا ترمش عيناه عنها، ولولة تداري خيبتها

بالضحك الهستيري، وثناء تكظم حسرتها.

عيون يشبع ناظريها الحب، لا يتوقف صفوت عن النظر إلى جميلة كأنه غير مصدق أنها حقًا بجانبه، كل جمال النساء شحب أمام هذا الجمال الغريب الصامت، الذي يقتلعها من العوالم الخارجية فينظر إليها مأخوذ بحضورها البهي، طوقت بذراعيها كتفيه، فأطل وجهها المضئ كفلقة الصبح رغم محاولات نانا الرخيصة وحركتها الثعبانية وهي تحاول حتى في هذه اللحظة الإيقاع به مرة أخرى في حبائلها التي لا منجى منها، وأدرك بفطنته أنها سوف تضمر له ولجميلة شرًا كبيرًا، واشمأزت نفسه وهي تحاول في حلبة الرقص أن تلتصق به، وأدرك إلى أي حد يسقط الجسد في السوقية والابتذال حين يكون هدفه ومسعاه نحو الآخر هو الرغبة فقط، وتيقن تمامًا أنه لن يستطيع حتى أن يقترب من ظل جميلة هذا النوع من النساء، ولطالما أحس بالنفور والتقزز كيف كان يمكنه الاقتراب من جسد يجهل روحه؟ كيف كان يمكنه معانقة أنفاسها الغريبة وتقبيل فم لا يعلم ما يخفيه؟

وها هي عروسه البريئة، تكاد أنوثتها تصرخ طلبًا لاحتوائه، وأعماقها تقطر رقةً وعذوبة، أصبح هو بفضلها رجلاً آخر أكثر تسامحًا مع الحياة، وأكثر ندمًا على ما ارتكبه من أفعال خسيسة، استعبدت نفسه فيها المطامع والأهواء، ولكن من الآن لا، لا بد أن يكون عناقه لها باذخًا يجمع فيه كل ما تعلمه من تلك الحياة القاسية، لقاءً فريدًا ممتدًا دائمًا هو لقاء المحب لجنته الغالية.

تعكس عيون لولة الحزن والحسرة بمرآهما معًا حين يبعدان يوليان إياها الأدبار، لا تدري ماذا تفعل وهذا الألم الفاتك يعصف بأعماقها، وتشعر بأنها تتهاوى وتتهاوى وتسقط ولا حدود لسقوطها، ولا شفاء إلا بذلك الكأس المر الذي أدمنته، ويصبح هو سلوانها كل ليلة، حتى تترنح من التعب وقد ذهب بعقلها الخمر، في حمى سعيها إلى إطفاء شهواتها المشتعلة، والنزول في هاوية الإدمان، إلى حافة الاستهلاك الغبي لعواطف تفسد بمجرد أن تتفتح.

وها هو الفرح يختلط به الحزن والبكاء مثل كل الأوقات في تلك الدنيا يشوبها شئ من المرار.

عيون يشبع ناظريها السلطة، وفي تلك الحفلة اختلطت أرقام التليفونات مع أرقام المصالح، وأصبحت مكانًا آخر لإنهاء الصفقات، ارتفعت في أرجاء قاعة الماريوت الشهيرة روائح التبغ الكوبي ورجت أنحاءها فرقعات زجاجات الشمبانيا، وتنوعت قاعة الطعام الملحقة بأركان الأطعمة من شتى البلاد: ركن صيني، ركن فرنسي، ركن عربي، ركن إيطالي، ركن ميكسيكي، وكذلك تنوعت أطباق المذات والمكسرات على الموائد.

اتضحت لي يومها فصول المسرحية الهزلية التي شاركت في بطولتها.

وها هي لولة تقدم للعروس بنفسها الشبكة، والعين الفاحصة تلمح تورم جفونها، ارتعاشة يدها رغم الابتسامات والفرحة المصطنعة.

تخبو شيئًا فشيئًا ظلال البهجة وتخفت الأنوار أو تكاد.

وفي مكان آخر ومنطقة أخرى في هذا العالم، تنطفئ أنوار وتشتعل حرائق، هناك يطالعنا وجه الحياة ساخرًا من عتمة الموت المؤكد.

قطعٌ مفاجئ لخدمات الإنترنت وبعض الاتصالات الدولية..

كيف يطمئن عليها؟؟

تنساب موسيقى أغنية (careless whisper) من الـ C.D بالسيارة.. شيءٌ ما في نبرات صوتها آخر مرة لم يرحه هي حقًا.... من سنوات لم يعد يبحث عن مسمى، إنها هي تلك المرأة التي ظل لسنوات يبحث عنها – لكل منا إطار خاص يحدد داخله ملامح وقسمات.. لون عطر.. خصلة شعر.. صوت.. كاريزما.. روح عشقها وأدمنها.. ولم يكف يومًا عن التفكير فيها.. والبحث عنها.. حتى وجدها وقد تربعت داخل ذلك الركن الهادئ المسالم في قلبه، واحتلت في داخله مساحات أكثر بكثير..

سنوات العمر تصقلنا.. وأيضًا الخبرة من نظرة تعرف ما ينقصك ما كنت بحاجة إليه حقًا..

أحيانًا تكون مثل الطفلة الشقية التي عشق ضحكتها وألاعيبها.. وأحاجيها..

وأحيانًا تشبه أمه في رقتها واهتمامها الأثير به..

هل هو مجرد اسم في أجندة تليفوناتها.. مجرد معرفة من المعارف التي تحيط بها وتكدس حياتها.. هل هو صوت تشتاق

إليه.. وجه آخر للمحة في الوجدان وفي اللاوعى داخلها سجلتها.. أحيانًا أخرى: يشعر أنها تلك الأنثى بكل تفاصيلها ونعومتها.. يحفظ تفاصيلها الدقيقة.. لون أحمر الشفاه.. مكان لمعة الغمازتين.. بريق عينيها حين تلقاه.. رعشة يدها.. تلعثمها ودفء ضحكتها...

اليوم هي بلا شك في أزمة، قرأ عن القضية في أكثر من مجلة وجريدة، لم يعد له إلا متابعة صورتها وأخبارها وإنجازاتها، وكيف أنها كرست جهودها طوال السنوات الماضية للعمل، الشهرة والنجاح يصبحان أحيانًا تهمة، تؤمن مثله أن الوصول إلى الهدف ليس هو الغاية.. ولكن طريقة الوصول فيها كل المتعة.. تؤمن مثل أمها، وجدتها، وبقية أفراد الأسرة حتى عمتها، أن على المرأة عبئًا آخر وأنها لها رسالة في الحياة غير إنجاب الأطفال وإنجاح عش الزوجية...

تأخذ كل شئ على محمل الجد، وربما أحيانًا على أعصابها..

ويلوم نفسه على سفره الدائم، وهذا الفراق اللاإرادي، وأحيانًا يلوم نفسه لأنه شجعها، رغم البعد، وارتباطه بأخرى، ظل شاغرًا إلى الأبد مكانها، تستعين به من آن إلى آخر، تستفيد بخبرته، وصار يصادفها في أماكن كثيرة..

ولما دخلت دائرة العلاقات الواسعة، كان يتباهى بها بينه وبين نفسه، وكان أحيانًا أخرى يشفق عليها أن يبتز براءتها أصحاب المصالح وأن يسعى الكثيرون والكثيرات إلى إيذائها..

ورغم كم الادعاءات الكاذبة التي تحاصرها، يعلم يقينًا أنها لن تخونها الشجاعة، ولكن ما فائدة الشجاعة وسط سهام الغدر من كل ناحية، يطمئن على أخبارها كلما أتيحت الفرصة من بعيد لبعيد، كان يزور خالها وخالتها، وسكنت إلى الأبد في قلبه محبتها..

يوم الحزن جاء، من أقصى الدنيا، وعندما فتحت له الباب خانتها أعصابها ووقعت مغشيًا عليها، سنون مرت، كبر أولادها، لها حق تخرج من عش الدبابير الذي دخلته من تلك الدائرة الأولى التي لم تحسن استيعابها ولا تقبلتهم ولا تقبلوها...

وزوج غير مكترث.. لا يعرف قيمتها.. كيف يلومها إنها اختارت طريقة حياة وعمل آخر يشغلها.. متنفسًا، من يقدر أن يلومها.. يكفي أنها تحملت حياة باردة كالثلج وجفاء الأقربين بكل صبر. لم يحاول مرة أن يحتويها أو يسعدها.. بل كان يسعى طوال الوقت للنيل منها.. وتشويه صورتها أمام أبنائها اختلاف الآراء لا يفسد للود قضية ولكن أين الود؟ أين المحبة؟

لا يستطيع أن يكون في موقف القاضي ويحاكمها.. مثل أسراب الطيور ترحل.. كما رحلت يومًا.. كما رحل هو يومًا..

عصفور جنة.. لا... هي بالنسبة له يمامة شاردة.. ينحرف بالسيارة إلى اليمين:

"غدًا سأطمئن عليها"

يعبر طريق (الأتوستراد)، تحت الكوبري تصطف عربات النقل والأجرة والمشروع... والتوك توك... الضباب يجعل شبه

الحركة مستحيلة.. وفي الناحية الأخرى: تصطف عشش الصفيح في كل مكان.. وجوه الأطفال يخيفها الذباب.. حفاة.. عراة.. يبكون من الجوع.. فارقوا الابتسام..

آخر دراسة قرأها أن في القاهرة أكبر نسبة انتحار، ثلاثة آلاف طفل سنويًا.. بسبب الضغوط والإحساس بتدني الذات..

وسجل المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية أحد عشر مليون مصري يعيشون في مناطق عشوائية، يشوبها إهمال الخدمات الصحية والتعليم، وكثافة عدد المقيمين في غرفة واحدة، قسمان يقعان داخل النطاق العمراني، روض الفرج، مصر القديمة، والزاوية الحمراء، ويستر شبه الغرف العارية من الأبواب ملابس قديمة هنا وهناك، ملاءات متسخة على أحبال الغسيل تتدلى، تلال من القمامة تحضن في داخلها آلاف الأسر التي تنتظر بزوغ الفجر للزحف المتمرد على الشوارع والأحياء الراقية..

يخبط على زجاج نافذة السيارة شحات بكل عنف:

لقمة يا بيه، لقمة "الله يخرب بيوتكم"

تفتح الإشارة...

أشعل سيجارته.. ويفتح زجاج النافذة: هواء ليل القاهرة.. صوت الحجار المنبعث من السيارة المجاورة يدخله في حالة أخرى:

("لما الشتا يدق البيبان.. لما تناديني الذكريات.."
القاني جيلك فوق شفايفي بسمتي".. كل الدروب
التائهة تحضن خطوتي...)

هل يصح له التدخل الآن.. (ويا ترى راح تسمع كلامي.. هي أكيد مجروحة قوي.. وخاصة بعد انفصالها عن زوجها.. رغم أني كنت عارف أن اليوم ده قريب...) استيقظت الأميرة ولم تعد عروسة العيلة.

وحشتني قوي.. حتى نبرة صوتها.. رغم أني لما بسمع دقات قلبي بسمعها.. رغم السنين والبعد.. رغم كل شئ أفتقدها..

يفتح الموبايل.. الغالية.. نعم ده اسمها الذي يسجله فيطلب الرقم ثم يتراجع في آخر لحظة..

(هو ده وقته برضه؟)

(يمكن الوقت مش مناسب.. يمكن تكون نائمة – ده إحنا بقينا آخر الليل..)

(يا ترى استلمت الهدية.. وقرأت الحكاية.. ويا ترى راح تفتكر وإلا حاجات كتير شاغلاها ونسيت خلاص..)

(ده إحنا كبرنا قوي.. بعدنا قوي.. يمكن حكايات الودع تنسيها شوية.. طول عمرها بتحب قصص الحب والآهات).

❖❖❖

وهناك في عتمة الليل في خضم تلك الليلة، ليلة الحكايات وما أطولها، يفتح في القلب تلك الندبة.

تترك الصالة، تتحرك تفتح النافذة، تنعشها رائحة الفل الهندي، تعود إلى مجلسها، تأخذه بين يدها.

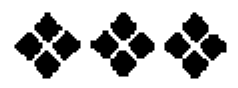
تقلب الصفحة وتجد العنوان "الكهرمان" ينير لها الدرب مرة أخرى

"اللي مكتوب على الجبين لازم تشوفوا العين"

..حكايات ستوتة فيها فراق كتير وحزن وبكا.. والدنيا لسه برضه فاردة إيديها، وتتمنى لكل الأحبة اللقاء، وهأنذا أقف مدهوشة "اللي مكتوب على الجبين لازم تشوفه العين" تستوقفني تلك العبارة المكتوبة بالطباشير الأبيض على عربة خشب مزركشة بالورد وكفوف مرسومة باليد وترفرف عليها الأعلام من كل الألوان، وعلى الجانبين أواني فخار مليئة بالماء والماورد، ومرصوص فيها تلال من حبات الكهرمان الأصفر، والفول النابت المعصفر بالشطة.. (طبعًا عرفتوه على طول.. ده بقي بياع "الترمس") (دايمًا كنت آلاقيه واقف قصادي من الناحية دي والناحية دي) وبجانبه على طول واقف راجل صعيدي ينادي: "الحمام المشوي" (كنا نلاقي يوماتي طوابير قدامه مستنية عقبال ما يشوي لنا كوزين مدملكين) (نشتري قرطاسين ترمس، نتمشى إيدي في إيدك، والفرحة مش سيعانا..)، وأمشي أتباهى بالخرزة الزرقة وعقد الفل، وعلى طول الكورنيش كنا نلاقي ناس

زيي وزيك، كلام وضحك لآخر الليـل، وحتـى النجـوم
كانت تسهر تتابعنا لحد الصبح، يجعلنا الحب ظلاً خفيفًـا،
تطير القلوب بالأمنيات، تعبر عرض البحار والمحيطـات،
وترحل إلى شطآن أمـان.. وعـش سـعيد.. يرفـرف عليـه
الطير بجناحين.

تعرفوا.. يبدو لي أني كنت أنشد المسـتحيل.. (أو حلمـت
حلم كبير قوي وصحيت منه فجأة)، زمن الأحلام قصـير
واللي مكتوب على الجبين..؟ صار الضـوء يتـابع أشـباحًا
تجري كأنها تهرب منا.. وتتحاشـانا.. ونتجاهلهـا، تتنـاثر
حبات الكهرمان في الهواء، وصـوت طقطقـة الـذرة عـلى
الفحم.. يتوارى بعيدًا مع سحابة دخان..



لكم أشتاق إليها، وإلى البلد، وإلى كل جزء فيها.

وهـا هـو يعـود، وهالـه مـا رأى، حـب التسـلق والانتهازيـة..
والوصول إلى المال.. والنقود توأم الفساد فيك يا بر مصر..

وجد نفسه يدندن أغنيته:

"يا عزيز عيني أنا بدي أروح بلدي.
قطعت تذكرة رايح، كان نفسي تبقى رجوع

خليني أنسى إمبارح يا قلبي يا موجوع

بلد الحبايب جارح..كفنا فيها دموع

يا عزيز عيني"

يا ترى لسه محتفظة بصورنا؟ أجمل صيف قضيته معاها.. أجمل إجازة.. وآخر إجازة.. وبعدها.. بعدنا وانقطعت أخبارهم وأخبارنا.. كل واحد شق حياته في سكة تانية.. بيني وبينها سر قديم، وحكاية إحنا الاثنين نتقاسمها ومعايا أمارة هي عارفة اليوم ده.. لما جرينا ورحنا داخل الخان القديم في السوق في أجمل مكان في الدنيا.. مكان إخناتون.. في رحلة الأقصر وأسوان، وقابلنا واحدة.. عجوزة قوي قرأت لنا الكف.. وشربنا عندها قهوة بالحبهان..

ياه كل الكلام اتحقق بصحيح وبقيت أستاذ ومعايا الدكتوراه..

وكأني هناك ما زلت واقفًا قبالتها يعود إلى مسامعي صدى صوتها:

"هي قدرك وأنت قدرها "

مكتوب عليك تشيل همها..

ده دمك بيجري في دمها..

تروح بعيد وترجع لها..

تغيب تغيب.. تطلع شمس ويغيب قمر..

تحمل همها..

دمعة عينها غالية عندك..

يا رب يحميها لك..

يوم السعد قريب..

ورقة رابحة في الطريق..

راح تبقى من حظلك ونصيبك..

لكن الصبر جميل

فيه زعل.. غيمة.. سحابة سمراء..

بلاد بعيدة.. بعيدة قوي بلاد الغربة..

أوعاك تسيب مكانك لحظة.. فيه صقر.. وديب

مترصد لها.. وناوي يخطف منك حبها..

أجمد يا جدع..

خطوة اثنين المقسوم محتوم..

إياك تقول "يا بحر خدني للشط صاحبك ملول"

ضحكت يومها من قلبي..

وأخدنا الكلام على إنه هزار في هزار..

يعني أخلص الدبلوم السنة دي وأتقدم لها..

ده لسه إيدي في إيدها.. وشعرها يهفهف حواليا.. وكمان بنغني نفس الأغنية..

ويتردد صدى صوتي.. مع صوتها:

تحت أشجار النخيل كنا نتمشى سوى..

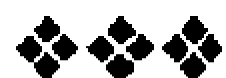
أسمراني اللون نحيل وأنا والنيل والهوى..

قال حيهواني تملي

والتفت تاني وقال لي:

مدى الحياة

آه مدى الحياة.



وعلى العشاء في مكان هادئ على النيل مطعم من مطاعم الخمس نجوم، تعلو فيه الضحكات وأنغام المطرب اللبناني المشهور "راغب علامة" تتمايل الفتيات يمينًا ويسارًا، كل البنات يجيدن الرقص، كأنهن ولدن بتلك الموهبة التي أضاف إليها الفيديو كليب تفانين جديدة.

تحلى السهرة ويعلو تصفيق عبد العظيم وسيف سليمان، يجاورهم صفوت وجميلة وبقية "البفة" إياها ثناء ولولة ونشوى وزوجها، يشاور سيف للنادل: المشروبات هنا خلصت، تملأ لولة كأسها وتتجرعه مرة واحدة.

ثناء: والله كفاياكي يا لولة صحتك.

لولة: يعني هي جت على الكأس ده بس، دا إحنا عمالين نشم بلاء أزرق طول النهار خضروات ترش بمبيدات مسرطنة، نروح نتعالج يجيبوا لنا أكياس دم فاسدة، وبعدين نطلع نتعالج على حساب الدولة برّه.

سيف: والله بلدك بلد غنية، شوف كام سنة والخير والبركة لسه في مصر.

عبد العظيم: والله ضيعتلنا الكأسين.

ثناء: تعرفوا أنا جوزي بيرفقوا معاه كل مرة وهو راجع مصر كتيب محاذير وعلى رأسها المياه.

نشوى: أمال السحابة السوداء دي ما لهاش يعني أثر على صحتنا.

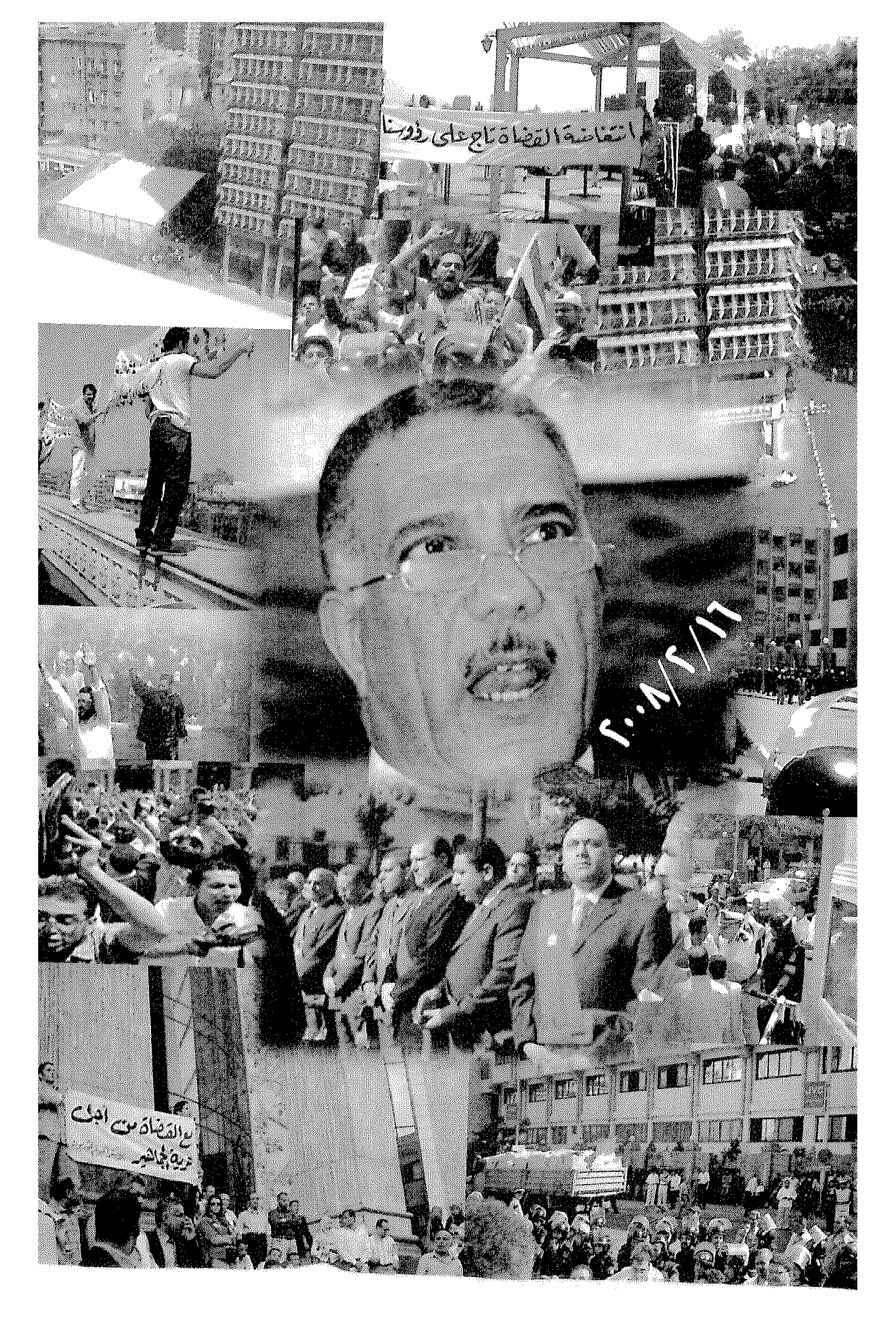
فيرد زوج نشوى الذي يعمل في مركز البحوث:

- إنها ليست فقط مسألة السحابة السوداء التي تظلل سماء مصر، ويقولوا حرق قش الرز بقى لنا سبع سنين على التوالي ولا فيش فايدة، السحابة السوداء ستظل تظلل سماء العاصمة المصرية متسببة في مشكلات صحية كبيرة في جهاز التنفس، المعارك بين وزارة البيئة و وزارة الزراعة ازدادت اشتعالاً.

عبد العظيم يطلق إحدى نكاته اللاذعة:

- والله تلاقي الحكومة هي اللي عملتها.

صفوت: يا عم ما تزودش الطين بلّة.


انتفاضة القضاة تاج على رؤوسنا
٢٠٠٨/٢/١٦
القضاة من اجل

الفصل الثامن

الرقوة

(" وسالت عن بختي

قالوا النجم له احكام

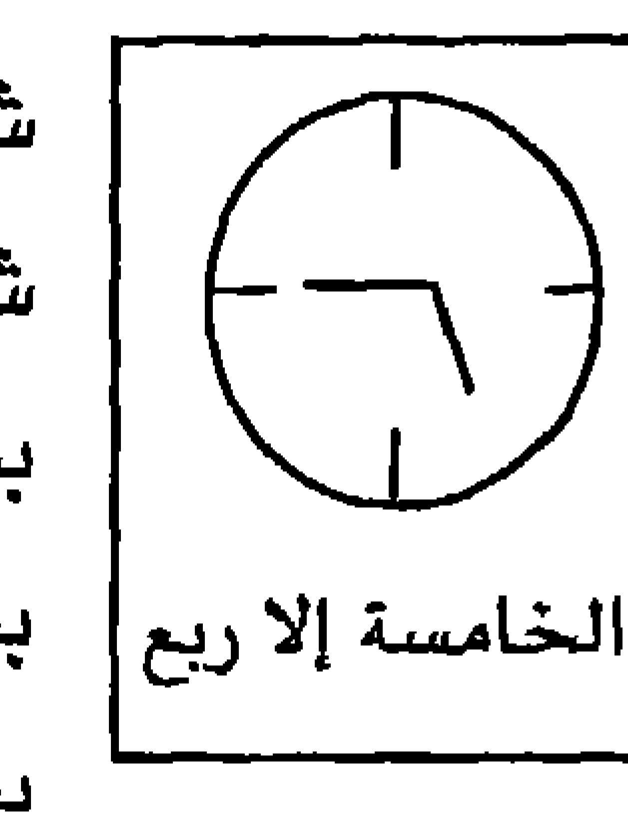
نجمك في يوم يرفعك

ويضعضعك أيام

واما نجمي أنا قولوا له يضحكلي

ونفضوه لو سمحتم لو لقيتم غيام ")

"صلاح جاهين"



شـيحي مليحـي... مـن عنـد الـنبي فصـيح
شـيح كـده وكـده.. مـن عنـد السـيدة
بخـور مرقـي... مـن عنـد سـيدي البرقـي
بخـور ده المقبـولي... مـن عنـد سـيدي المدبولي
بخور ده نجاوي.. من عند عشماوي
سنداس.. مرسي أبو العباس

الأولة: بسم الله.. التانية: بسم الله.. الثالثة: بسم الله

رقيتك واسترقتيك من عين كل اللي حبوكي.. من عين أمك وأبوكي.. ومن عين الناس اللي حسدوكي...

يـا ريـت الجـرح يطيـب.. يـا ريـت كانـت الرقـوة تعمـل بيني وبينهم حاجز يجعل سهمهم الغدار مـا يصيب.. لكـن ده نصنيب وعلى رأي صاحبة الحكاية:

اللي مكتوب على الجبين لازم تشوفو العين... والنصيب غالب.

أنظـر إلى الصـورة الـتي تجـاورني علـى المنضـدة، تطـالعني ابتسـامة زوجـي السـاخرة، مـن كـان يـدري أن ابـن المحـامي الكبير.. وكيل النيابة الوسيم.. سيصبح زوجي.. وبقى عندنا من الولاد اتنين: بسمة وأدهم.. (أهم في الصورة متبروزين.. ربنا يحميهم ويرجعهم ليّا سالمين..)

لكن أنا وهو من جنسين مختلفين... أقول شمال يقول يمين...

يصادر كل أحلامي.. يعدل في كل كلامي.. ألبس اللي يعجبه.. كأني طفلة لا تفهم في أي شئ.. والأدهى والأمرّ كل يوم تحقيق.. شغلي مش مستحب.. كل خطوة حرب.. حرب بجد.. فكرة الاستفادة من الوقت الضائع ومن العمر الضائع جاءت مثل طوق نجاة.. وأصبحت احتياجًا ملحًا.

("إيه رأيكم يا جماعة" والله يا لولة دي فكرة هايلة..)

كانت أيامها ليلى تعمل في مكتب تجاري كبير في وسط البلد.. عملنا على تأجيره (وبعدين اشتريناه..) (ودخلت معانا الحكاية نشوى علشان تثبت لجوزها إنها مطلوبة وشاطرة ومهمة.. ومش مهمشة زي ما كان هو بيعاملها!!!)

الصعوبات التي قابلناها في الأول كانت كتير... واتخانقنا كتير.. والوقت اللي كان كله للبيت اتقلص حبتين، وطيب وكان حاصل إيه؟؟ يبقى الأمر على ما هو عليه...

من هنا جاء الانفتاح على الدنيا، (الدنيا التانية فيها حاجات كتير، مغرية، ملايين بالكوم، أضواء، إبهار، فلاش كاميرا كل شوية، صور في المجلات، عزومات، ناس ما بتحسبهاش، وكنت عايشة كأنى في حلم ليلة صيف طويل، رغم أن الظروف والأحوال لا تسر عدو ولا حبيب.)

تقرير حكومي يكشف حجم الفساد:

٧٦٪ من الموظفين مرتشون، التعليم، والداخلية، والمحليات، ٦٥٪ من المواطنين يعتمدون على المعارف والأقارب لتسهيل وتخليص مصالحهم، ووصلت معدلات سرقة المال العام إلى ٤٣٪

داخل الوزارات، ٤١٪ في البنوك والبورصة، ٤١٪ في الكهرباء، ٤٢٪ في المحاكم والقضاء، ٤٤٪ في الصحة.

فعلاً كأني كنت في دنيا تانية غير الدنيا الحقيقية ما أقدرش أقول إني كنت زعلانة ومهمومة، بل بالعكس كنت فرحانة، وحماسي أعطاني طاقة كبيرة، (وبدأت أشيل المكتب على دماغي، أعمل كل حاجة بنفسي، وأراجع على كل التفاصيل، مش مهم السهر، والجري في ترتيب المقابلات، أروح بنفسي إلى المواقع أصورها، أختار لكل واحدة أحسن اللقطات، أحضر الـ (plane) من الألف إلى الياء..)

(أستحمل التريقة والتعليقات اللاذعة لي في البيت، مش مهم أنا بعمل ده بمزاج، آه واحدة غاوية شقاء..) حتى وصلت بفضل الله إلى أعلى درجة في المكتب التنفيذي، وجاء عليَّ الدور للترقية، (أصغر واحدة فيهم حتبقى رئيسة عليهم.. مش عشان أي حاجة غير أني كنت مجتهدة في عملي.. دقيقة.. وكتومة.. وبحفظ الأسرار.. كل واحد كان عنده حكاية وعمري ما تمنيت أنى أواجه اليوم اللي فيه راح أقول كل حاجة، أنا غلطت لأني كنت ساذجة؟ عندي حسن نية؟)

(حسبت حساب العشرة، طبعًا دي كلمة ملهاش معنى النهاردة.. يا دي البخت.. لا نفعت معاهم رقية ولا حجاب، وحصل الصدام معي، واكتشفوا أني عاملة زى الحيطة السد، وأشد كمان أنا كنت زي الصخرة).

أستمع بكل تؤدة إلى همس الأسرار، ورفيف ذكرى حركتها أشواق الحنين..

أقلب الصفحة.. وألاقي نفسي أمام صخرة العشاق.. توشوش للرياح.. وترد عليّا أصداء الأمواج والصخور.. أتدري من أنا؟

..أتدري من أنا؟.. إذا كان هو البحر فمن أكون أنا؟

إذا كان ما أحبه فيه يدفنه في أعماق، وإذا كان ما يؤثره فيَّ أخشى أن أطفو به على السطح، أو أهمس به للأصداف على الشط..!!

أحب النور.. الشمس.. والنجوم التي تظلل سماء الليل وطيور النورس التي تحط على ظهري..

أحزن تارة لغياهب السكون والصمت وأفرح تارة أخرى لاقتراب السفن والقوارب مني، ربما تحمل إليَّ يومًا نسائم الأحبة، قد تعود أقدامهم تصول وتجول في المكان، قد يعود الغائب يومًا يبحث عن قارورته التي تركها بين جوانحي، يبحث عن حروف اسمه المحفور في قلبي إلى الأبد، ويتشتت العقل فجأة، وماذا أفعل إذا لم يعودوا؟ وإلى أي مصير سوف تلقي بي الأمواج؟ وتتلقفني نوة تلو النوة، ويظلم الكون من حولي حينًا فأشعر بالوحشة، حتى صوت هدير الموج ما عاد يؤنسنى، بل أصبح يصفعني بكل قسوة، ويتكسر زبد الماء قطعة.. قطعة، وعندما تهدأ

العواصف، أتطلع من بعيد فأرى الشط.. ويروني.. ثابتة في مكاني.. شامخة عالية الجبين مثل الأمس.. أحفظ الأسرار.. وحكايات الوجد.. حاملة الأختام والعهد.. صامدة أحاول أن أجمد فرائسي المرتعدة.. ويشيرون إلى هذه هي الصخرة.. صخرة العشاق.. وقف هاهنا صياد الهوى، ومرت عليّ نوة من أعتى النوات، وأضاء لي في عتمة الغيهات من بعيد ضوء الفنار، وطارت أسراب الطيور إلى تلك السهاوات..

تنتقل الحكايات، وتقص الأسرار، تعود الأصداء محملة بوشوشات الغناء.

كما تناقلت الأخبار، أخبار الصفقات المشبوهة في كل الجرائد والمجلات، بدأ الكل يتحدث عن الفساد كأن ليس في الحياة شئ آخر يقال.

وكأن البيت الكبير أصبح كل شئ فيه متاح، سرقة الآثار، تلويث مياه النيل، تجفيف الآبار، وأصبح معول الهدم بيدي لا بيد عمرو.

الكل منساق وراء المصلحة الخاصة رغم أن المصالح تتداخل، وإذا عم الظلم الكل تصبح هناك مساواة بين الفقير والغني والقاتل والقتيل، كل في المركب سواء، إذا غرقت غرقنا معها.

هكذا بدأ صفوت حديثه.

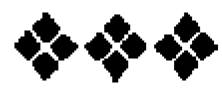
سيف: تعرف أنت عندك حق، لكن إذا ما كنتش أنت حيبقى فيه ألف واحد غيرك، مستعد يقسم ويبيع، الكلام كله كان حلم قبل ما تتمضي المعاهدة، دلوقتي يا شاطر أنت متقيد ومش أنت لوحدك اللي سكت، إحنا كلنا سكتنا واشتركنا في الحكاية، ودلوقتي قطعنا شوط كبير منها.

- حتستفيد الناس إيه من عمل مفاعل نووي الضبعة، هما لاقيين ياكلوا.

- أهه يحدفوه في النجيلة أو يعملوه في أي حتة، بلاش وجع دماغ النهاردة، هو عبد العظيم نقل لك قلقه، ده راجل أهبل تضحك عليه النسوان، الواحدة بعد الأخرى.

- أنا عايزك تروح تقابل شركاءنا، دى السياحة في شرم الشيخ اتبنت على كتافهم، خلي الساحل الشمالي هو كمان، خلي الخير يعم علينا زي زمان.

يغلق حوار ليفتح آخر وللحديث بقية.



يا وش الخير يا وجه الحكايات.

أسأل عليه، أكلمه، أشكره على الكتاب، يا ترى اتغير، وإلا زي ما هو؟

أقلب الفنجان وأحاول أقراه لنفسي زي زمان: يا ترى القريب من القلب بعيد..

لسه بعد الليل والنهار، بحار اتعلم لعبة التيه في البحار، كان بيحب الصيد..

يا ترى لسه يدندن وهو واقف على الصاري، بصوته الرخيم في سكون الليل، نفس الموال؟

صياد رحت أصطاد صادوني

اوعوا تحلو المراكب، والله ما أنا راكب،

والله ما أنا حاطط رجلي في المية إلا ومعايا....

أفتح صفحة أخرى من الكتاب... كأنها رؤى في مقلة العين تنساب.

وأسرح في قصة صياد الهوى:

..يسكن كالحلم بين جفوني، أغمض عيني فأراه ولا يراني، أهرب من تلك النظرات الفاحصة، أخفي صفحات من الحكاية، أبتلع الشجن، وأستمع للفتاته وسكناته بعمق، أكاد ألمس بيدي دقات هذا القلب، أراه خلف زجاج النافذة يرقب باسمًا هرولة المصطافين وهرولة السائرين على كورنيش البحر، ألمحه يتوجه للبحر في ساعة المد، يطرح في المياه سنارة صيد تحمل الطعم والأسئلة، وعندما يقضم السمك الطعم، ويرتعش الفل الطافي على السطح، تهتز القضية هزة خفيفة، يرخي الحبل

النيلون المنزلق، ويتحسسها وهي تقاوم، ويجعلها تمضي.. تفر إلى أعماق البحر، ويبتسم للحظة، لم أكن أفهمه.. "تكفيني تلك الفرحة " ثم يعود.. يقف شامخًا أمام أمواج البحر المتلاطمة، صلبًا كجلمود صخر، وأتابعه بحذر حتى لا ينتابه مني الضجر، ترافقه عيناي أينما ذهب وتهفهف روحي حوله، أحيطه برموشي، وأتمنى ألا تخدش جبينه حبات المطر، وعندما كان يهدأ الريح، ويلف السكون كل شيء إلا صوت البحر، يتمهل في سكينة وتتكسر الأمواج الصغيرة على الصخر في حنو، ألمحه.. يرنو.. يمشي الهوينى.. مستخفًا.. طويل القامة نحيلاً.. يلون عيونه الليل، يمر بي هادئ الخطى، يسأل أحيانًا عني هامسًا ويختفي، يضع يديه في جيوب سرواله، يصفر للهواء، وأحيانًا كان يسرع الخطى كأنه يهرب من شيءٍ ما؟ ويظل لساعات وساعات يدهن قاربه الجديد، ألمح في وجهه شبه ابتسامة ساخرة سرعان ما تختفي، أتظاهر بقراءة الجريدة، وأعاود النظر إليه وأتبين أوجه الشبه بينه وبين البحر، يغضب ويثور أحيانًا، ويجنح إلى الصفاء

والصبر أحيانًا أخرى تنتابه لحظات من التهور، ويهدر صوته أعلى من موج البحر، ويقلب الصاري رأسًا على عقب، وعندما تلقي السحب على الشمس طرحتها الداكنة حيث تلقي به الريح يمضي.. يذهب..

أبصره: راحلاً يسأل عن حب؟ عن ذكرى!!! تصادر الأيام الأحلام كما يصادر الليل النور، ويشكو البحر هجر الطيور، والطيور كل موسم تفارق الهضاب!! سنوات تمضي وأخرى تأتي، سنوات غريبة لا ننتمي إليها، صرنا عنها نحن الآن غرباء.

غاب.. كما يغيب عن السماء وجه القمر، سألت عنه أين أجده؟ فقالوا لي لا يعود إلا قبيل الفجر بساعة، وتمتمت في صمت: "إنها مهنة شاقة" يحمل روحه بين كفيه كل ليلة، أيمضي إلى المجهول أم نحو بحر الحياة يسبح؟ يغوص في أعماق السكون، يأخذ فلوكته البيضاء يشق بها عتمة الليل بمصباحه المتأرجح على صفحة المياه.. يرحل.. يكتشف أغوار البحر، لا يأبه للريح التي تحمله إلى جوف العتمة، يحمل الليل ضوء الشمس معه ويهرب، لا ينتابه

الخوف لحظة، رذاذ المطر يغطي وجهه، قسماته أصبحت
أكثر حدة، فارق الابتسام، تلمع في الظلام عيناه، ينادي
على غلامه: أرم الشبك يا ولد، فيفترش الشبك سطح الماء
وتدخل الأسماك وسط تعشيقة الحبل الممتد، فيلمها بسرعة
وخفة، يعدل اتزان المركب، يعود أدراجه، يربط الحبل
ويعقده تلمس أقدامه الرمل، ولكني ما عدت أطمئن..!!
يمضي وعيناه مسبلتين، وساقاه تشتكيان التعب، ألحظ
جحوظ العينين وهالة السواد تحت الجفن، ألمح ساعديه
وقد ظهر عليهما الوهن كلوحة ترنو إلى مغيب الشمس، ما
عاد صياد الهوى يملك ضحكة صغير السن..

وها هو صياد الفرص هناك صيداً يطلقون عليه: صيد الحيتان.

عبد العظيم: أنا قلقان من العملية كلها، تعالوا نفض أيدينا من العملية، صفوت لمح لي من أيام إن الحكاية بدأت تفوح ريحتها، مش إحنا اللي حنصلح الأحوال، إذا انصلح الحال العام انصلح حال العوام.

وإلا إيه يا لولة، لو الأوراق اكتشف فيها التزوير راح تكون حكاية كبيرة؟

فتضحك لولة ضحكة عالية: خلي قلبك جامد يا عبد العظيم بيه، وإلا إيه يا ثناء، هو عبد العظيم مش واثق في

كلام سيف بيه وإلا إيه؟! أحضرينا يا نانا.

فتقوم نانا من مكانها تختال: (أنت بقى إيه حكايتك يا عبد العظيم بيه محتاج شوية مساج علشان القلق يروح باين عليك..).

تحاول لولة أن تخفي ازدرائها، وتكمل حديثها:

- وراح يا سيدي أخليلك كل مجلس الإدارة يوقع على الأوراق، وأنت من الباطن، لا حد شاف ولا حد حس كله مضبوط، لا تقلق، ده إحنا في الحماية، وكله علشان الخير يعم والناس تاكل، وتعيش ونقب على وش الدنيا..

"يا عزيزي كلنا فاسقون"

- وبعدين إحنا مجموعة شركات متضامنة، لها أفرع كتير، ومعاملات مع البنوك، القرض ده حتغطيه السندات...

وما تربطش بين حكاية وحكاية: والمكتوب في صحف المعارضة: شوية مناوشات: افتراء على الناس هم دول أعداء النجاح.

باعتراف الرقابة والبنك المركزي: قضايا الفساد تضاعفت خلال ٤ سنوات، وشهد شاهد من أهلها، أيدت الأرقام والبيانات الصادرة من البنك المركزي، ما ذهبت إليه الرقابة الإدارية، موضحة أن جملة القروض التي تم نهبها وتهريبها من البنوك المصرية ولم تسدد ما يقرب من ٤٢ مليار دولار أي حوالى ٢٤٠ مليار جنيه سنويًا.

يعني مش راح تيجي على شوية الفكة دول المهم إمضاء الست بتاعة الشرف والأمانة، حاروح أحط لها الورقة دي بسرعة وسط الأوراق، وتهرول مسرعة، وتصفق نانا بكفيها: وأخيرًا راح نخلص منها.

أوقـع بـاسمي أسـفل الأوراق ولم أفهـم حينئـذ تلـك النظـرات التي تبادلها كل من عبـد العظيم ونانـا، نظـرات الارتيـاح، وهـا أنا تتضح لي الصورة مع مرور الوقت.

اتفق الاثنان منذ مدة لأنهمـا بكـل بساطة من عينـة واحـدة، مش مهم ندوس على مين فـي السـكة، تجمعهـم مشـاعر الغـيرة والحقد تجاه الآخرين.

غـيرة عبـد العظـيم الشـديدة الـتي لا تخفـى علـى أحـد مـن صـفوت الـذي أصـبح ذراع سـيف سـليمان الـيمين، ومـن ناحيـة أخـرى غـيرة نانـا غـير الطبيعيـة الـتي ركـزتهـا هـذه المـرة علـى جميلة، وأصبحت تذهب معها فـي كل مكـان، أهـه تتفتح لهـا أبـواب جديـدة، وتقـوي نفسـها بشـوية علاقـات وتكمـل بقيـة التمثيليـة الـتي أبـدعتها تصـويرها، وحكايـة أنهـا مـن عائلـة ومحترمة الخ.. الخ، وتقفل بالضبة والمفتاح على الفضـائح اللى بتعملها فـي كل حتة.

يطبطب عبد العظيم على كتف نانا:

- أبسط يا جميل، بقى كده ما فيش حد أحسن من حد.

نانا: أنا طول عمري أحسن منها، هـي فـاكرة نفسها حاجة ومـن عجينـة تانيـة، أمـيرة دي شخصـية مش سـهلة، أهـي داهيـة وانـزاحت، وعلى الله تعمل فيها بطلة، المهم سيبك، سيبك، هـو أنت الليلة دي راح تسهر فين.

يسـكت عبد العظـيم لبرهـة ويشـير ناحيـة ثنـاء الـتي بـدأت تحيل حياته إلى جحيم، بسبب وجودها دائمًا بجواره.

ثناء: هو إيه يا عبد العظيم راعي نفسك وصحتك شوية، أنت مش صغير على كده، فيبادلها نظرة يتطاير منها الشرر، تختنق أنفاسي، أعود إلى نفسي مرة أخرى فأجد أنفاسي تتلاحق كأني كنت في سباق أحاول أن أروض نفسي على الثبات...

"حسبي الله ونعم الوكيل"

وبأصابع مرتجفة أفتح الكتاب على صفحة جديدة ص (٦٧)، أرحل في حكاية أخرى، ينير لي الفنار كما أنار لصاحبة الودع تبدأ العبارات مثلما بدأت أنشودة الحياة ليس هناك ثبات لشئ، قد يحدث أي شئ خلال ثوان، وتمحو الظلال، الظلال.. كما محت الأمواج خطوات أقدامنا على الرمال...

..أتأمله من بعيد ضوءًا ينطفئ ثم يضيء صفحة الماء لثوان.. أنوار بعيدة متقطعة، والغريب أني أستطيع أن أتبين بعض الأصوات.. بعض اللقطات.. وكأني في فيلم سينمائي أبيض وأسود يعود إلى الوراء، تتجلى لي الحكاية أو بعض من أحداث كأنها ومضات ضوء، فتعود لنا ألفة الصحبة، وذكرى وجوه.. هناك صديقي.. رفيق عمري.. يرسل لى إشارة النصر.. يبتسم لي ويشجعني في الحياة على تخطي الأشواك بلا يأس.. ألجأ إليه اليوم مثل ذلك الأمس، يتابعني.. ينصت لي ما زال هناك من يعضدني ويشد أزري،

ينتمي لي، يحدق في بعيونه التي تترقرق بالطيبة، يربت على كتفي، أنقذني من الموت مرة أتراه سيعاود الكرة؟ أول رحلة لنا سويًا بعيدًا عن الأهل كانت إلى البحر الأحمر، أول تخييم بعد استرداد الكرامة وكان أول مكان.. شدوان الغردقة، أقمنا هناك بضع ليال من أجمل ليالي العمر، نشتري ما نحتاجه من السوق.. طعام الإفطار والغذاء، نتقاسم كل شيء.. نصف السرير.. نصف الرغيف.. نصف الحلوى.. والكتب المستعارة، حتى الضحك والبكاء يسكن إلى الآن في قلبي، وأسكن إلى الآن في قلبه.

ذهبنا لقضاء يوم في جزيرة الجفتون أجمل بقاع الأرض، طيور تشبه النعام ذات أجنحة خضراء، ترفرف في أرض تسكنها الطمأنينة، أصداف تتلألأ مثل النجوم يلمع بريقها على الرمال البيضاء الناعمة كنا نتفنن في جمعها ونتبارى في اختيار أندر الأشكال، بحر بلون الفاروز، وربما أشد نقاءً من الكريستال، مياه صافية رقراقة، الشمس تدغدغنا، نتمدد على الرمل في كسل، لا يوجد مكان نحتمي فيه من أشعة الشمس المحرقة فنجري إلى الماء.. يرطبنا.. ينعشنا

وهكذا.. حتى غطسنا وظللنا نبتعد عن الشاطئ، أخـذنا الحماس، طيش الشباب نعشق العوم لمسـافات، ولم نشـعر إلا ونحن بعيدًا جدًا، اختفت معالم البر، اشتد بنا التعـب، سـحرتنا ألـوان الشـعب والأسـماك، عـالم أبدعـه القـادر الخلاق، ما زلت أرى القاع تتجول فيه عجائب الكائنات، ذهل العقل.. تشتت ذرات.

أدركني الإعياء حاولت المقاومة ولكـن هيهـات، أنفـاس تتباعد.. تتباطأ ثانيـة.. فقـدت للحظـات الإدراك، كـان معي يسبقني بخطوات، أحس بي، عـاد لي بسرعـة يحثنـي تارة، لم يدركه لحظة الارتباك، يشجعني.. يناديني.. ثم بدأ في نزع قناع الأوكسجين ودسه في فمـي، وظـل يسـحبني سحبًا حتى وصلنا إلى الشط.

صديقي كيف صـارت بنـا الأيـام..!!؟ أتـابع الخطـى إلى الأمام.. أنظر ثانيـة إلى الفنـار.. كـل شـئ يفـر: "طيـف صديقي.. رذاذ الغبار على بقعة ضوء.. أغنية الريح.. موج البحر.. ظلي على الأرض.. وتسري في بدني قشعريرة..

16 Feb. 2008

الفصل التاسع

فراق الأحبة

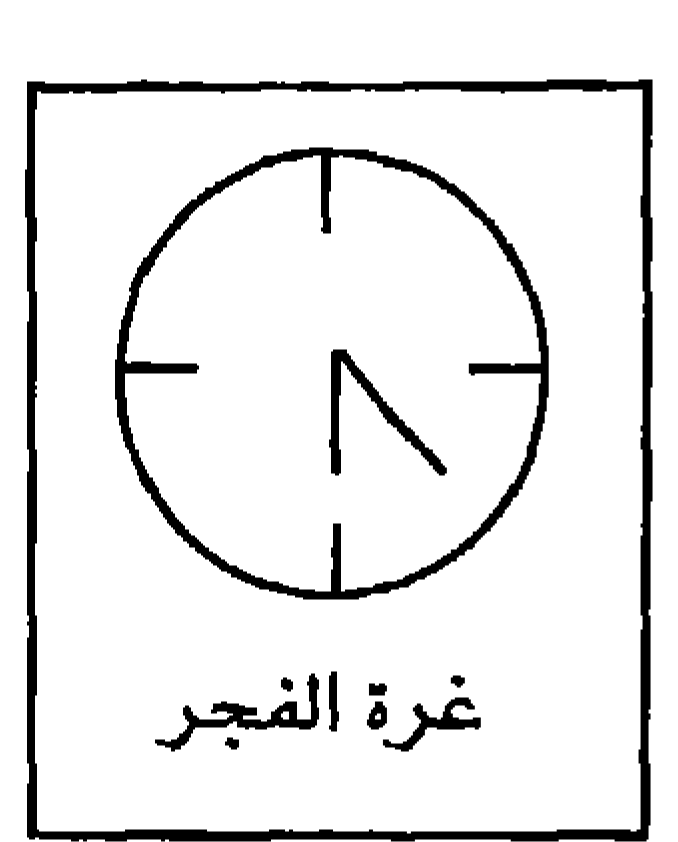
إنني أنشد صدرًا مزقه الفراق..

حتى أشرح له آلام الاشتياق

فكل إنسان أقام بعيدًا عن أصله

يظل يبحث عن زمن وصله

"جلال الدين الرومي"



أنت زمن وصلي....

بدونك.. ما كنت استطعت أن أقف ثانيةً على أقدامي.. استعدت معك نفسي..

وأي فـراق هـذا... وأنـا أحمـل أنفاسـك داخل قلبي..

قبـل اقتسـام السـحاب لبقايا المسـاء، وقبـل الفـراق لا تـدعني أقبلك بين عينك أليس من النبع يبدأ غسل الماء، أليس من الريح تذرو رماد القدر، وبعد يأتي ذلك المشهد.

"ما جمعه الله لا يفرقه البشر"

بـدت الحيـاة فـي عيـون صفوت بعـد ارتباطـه بجميلـة تأخـذ منحنــى ثانيًــا ، وأصــبح أمامــه اختيــار، إمــا الاســتمرار فــي السـقوط، وإمـا أن يـنفض يـده مـن هـذا كلـه ويعـود يسـطر صفحات بيضاء.

أصـبحت لولـة بالنسـبة إليـه مجـرد صـديقة بعيـدة لم يـنس فضلها عليـه، بل أحيانًـا كـان يرثـى لهـا، فقـط نانـا هـي الـتي كانت مثل الشوكة فـي جنبـه، واتضـحت لـه لعبتهـا الرخيصـة ومحاولتها المستميتة فـي خلق جـو من الشـك والبلبلـة فـي عقـل جميلة والتأثير عليها.

واعتقـد مكالمتـه الأخـيرة لهـا فــي التليفـون ستضـع حـدًا لاقترابها المشين.

صفوت: يا ريتك تشوفيلك حد تاني في الدنيا، هو أنتِ يا بنتي جوزك ده ما لهوش عندك أي قيمة.

أنا بقى مراتي تهمني، وسمعتها من سمعتي فيا ريت ترحمي نفسك وترحميني شوية).

نانا: إيه الكلام ده ياصفوت، أنت داري بتقول إيه؟ الكلام ده تقوله لحد تاني، إحنا يا حبيبي كلنا في مركب واحدة، واللي مش عاجبه يضرب رأسه في أجدعها حيطة.

صفوت: دا أنتِ صحيح بنت....

يرمي محموله بعنف على المكتب، يدخل سيف سليمان:

- إيه يا صفوت.. إيه الحكاية.. مين مزعلك؟ قل لي بس وشوف-أنا راح أعمل فيه إيه.

ترتعش يد صفوت لثانية: إن شاء الله كله حيبقى تمام.

وبدت حينئذ الأمور تأخذ منحنى آخر.

❖❖❖

أحداث الفيلم الشديد الرومانسية الذي يدور أمامي، والذي أتنفس فيه ساحات النقاء وأحضن في صدري كتابي في نفس اللحظة، يجعل عيون قلبي تتعلق بذلك المشهد: المشهد الثامن للفيلم:

رعشة تسري في بدنه، يفيق إلى نفسه، يعود إلى الواقع..

وبمنتهى الرقة يبتعد عنها، لو ألح عليها، قد يفقدها..

ولو ظلت بين أحضانه أكثر من هذا قد لا يفارقها، ربما تتعقد الأمور أكثر..

لا بد أن يتركها الآن، وفي الحال...

تندهش البطلة من تصرف روبرت ريدفورت في الفيلم، ينصرف من الحفل..

تبحث عنه في كل مكان، تجري إلى البحيرة، تجد ظله هناك، يدير ظهره..

يغمر المطر والدموع عينيه.. تقترب..

صوت وقع أقدامها يجعله يلتفت فجأة، وتجد نفسها بين أحضانه، تكاد تنزع نفسها انتزاعًا منه، شئ ما أحدث فارقًا، شئ ما صار أقوى، شئ ما إلى الباقي من العمر سيبقى:

"إن شئت أن أذهب سأفعل؟

فصاحة عينيه أبلغ من كل الكلام، يمسك يدها ويتجهان، يسرج لها الحصان، ويمضيان ليلة رائعة، يتجولان، يدًا بيد، يفترشان العشب الندي..

واختلسا من الزمن خلوة، في تلك الليلة لم تذق عيناهما النوم، اكتشف فيضًا من الحنان يتوهج مثل القمر يتسلل فيتحول إلى عناق، يتركان لجام أسر مشاعر مكبوتة احتوتها نسائم الليل وصارت عليهما تتمرد، خصلات شعرها تتبعثر، تسقط أوراق الخريف الأبدي في منحة دفء الأصابع، تركض اللهفة فيطبع على عنقها الهش كعنق زهرة قبلة وراء قبلة، دارت السماء في لحظة خاطفة، حملها بعيدًا، لا تتوه اللحظة تصبح لحظات النشوة مثل البرق تمر وترشق مثل السهام، تغور الأرض تحت أقدامهما وكذلك ملامح الأحزان، يستحيل

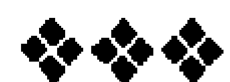
الكلام ولا شئ يسمع إلا صدى شهقات تزفها أجنحة الطيور وتوقظ في هدأة القلب أعراسه النائمة، وظلت على أطراف الغابة النجوم تحرس ذلك اللقاء الاستثنائي الفريد، غريبان أليفان في لهاث الغيوم التقيا "ماذا يحدث لو أننا صرنا مثل كل العصافير، رحنا نسافر منا إلينا".

الاكتشافات الغريبة هي الأخرى مثل ذلك الحنين، تتمايل فيها التفاصيل، تتبختر مثل سرج المهر المجنون، ويطل وجه التحول كيف يكون للعشق طعم الحياة؟ كيف تتلون الأشياء؟ ويتشهى الجسد الغض ويتعلما فن الإنصات، يتقاسمان لحظات الصمت المتعة ونشوة أن يكونا معًا: كتفها بمحاذاة كتفه وعناق مرتعش وهمس بليغ يعزف على أوتار الأنثى، فتصبح مثل فرس جموح تسهر وتتعلم أن تقول وأن تسمع وأن تستقبل ذلك الضوء الخافت حيث تتراقص الأشياء تحت ظله المتوهج.

وها هو يهبها الهدوء والسكينة، عرف كيف يولد الأحاسيس المتضاربة في أعماقها "من لا تحبه الروح لا يحبه الجسد"

يدثرها بمعطفه، فتريح رأسها على صدره، تسمع دقات قلبه وترتاح قسمات وجهها، وتذهب في سبات عميق شقشقة العصافير: توقظهما فيعودان أدراجهما إلى المزرعة..

تلمع عيناها، عربة (فورويل) سوداء، ينتظر بجانبها زوجها، فتسري في بدنها قشعريرة يلحظها هو فيربت على ظهرها، ويجعلها تسبقه إلى الأمام...



كما تتربع في عناوين الصحف الأولى، مانشتات تحمل إدانة الكل:

إلى الأمام يا وطن!! إلى الأمام...؟؟!!

تقرير حكومي يكشف: التعليم والداخلية والمحليات أكثر فسادًا. (جريدة الجماهير).

تزيح نشوى الجريدة بغضب: هو إيه بقى ده، شغالين على الناس كلام، كلام، وبعدين يا ترى أوراق تسريب الامتحانات فاحت ريحتها هي كمان، يا خبر أسود لو الراجل بتاع المعهد راح في أبو توكر، مش راح آخد الشهادة في سنتي، وبعدين موضوع الشركة اتلخبط قوي وأنا لم أحصل على أي مبلغ من فترة طويلة، مصيبة لا يكون الورق الأصلي مش مع ماجي، مين راح يدلنا على الحقيقة دلوقت.

دي الحكاية اندفنت معاها، وأنا بقى حقي راح آخده من لولة وعبد العظيم إزاي؟

أنا لازم ألاعبهم على الشناكل، لحسن يجرجروني معاهم وده لعب توظيف أموال بقى على المكشوف..

- آلو إزيك يا عبد العظيم.. إيه حكايتك غطست أنت ونانا فين اليومين دول، وأخبار الدنيا إيه؟ أيوه يا عم مين قدك كل يوم شهر عسل جديد، وأنت غاوي التجديد.

- يا نشوى كفاياكي قر، دي ثناء شكلها اتجننت وعاملة لي مشاكل وحكايات، ولولة مش مطمناني كل ليلة سهر وشرب لحد الفجر.

تغلق الخط، وتشكل أرقامًا أخرى:

- آلو.. إزيك يا لولة، على فكرة، أنا كنت عاوزة أقولك إن مش ماجي بس اللي كان معاها نسخة من العقود المضروبة، الأصل راح تلاقيه مع الست الهانم، بس مين يقدر يكلمها ما نحاول كده نأخذ الورق بهدوء..

- نانا عمالة تروج الإشاعات عنها في كل مكان.. أهي من ناحية ومن ناحية تانية.... عموما ما تخافيش يا نشوى.. إمضاؤها أسفل الورقة راح يدينها، هي أول واحدة، وما أعتقدش أن فيه نسخة تانية، لكن تصدقي أنا برضه قلقانة شوية...

- وتفتكري هي تعملها وتقدم الأصل؟ دي تبقى قليلة الأصل قوي.. ما تسيبنا بقى في حالنا؟

يرتعش سلك التليفون، وتغلق السماعة، أذن أخرى تسجل المحادثة.

لم تكن هي المرة الأولى، سجلت أذنيها محادثات أخرى في ليلة الزفاف، وقبلها حفلة "الفالنتين"، بين عبد العظيم ونانا والاتفاق الشبه ضمني الثلاثي ما بين صفوت ولولة وسيف وأهي نشوى في قلب اللعبة تأخد كلمة من هنا وكلمة من هناك، أين هي في وسط هذا الخضم؟

شئ أصبح يثير القرف.

بعد كابوس المراقبة تأتي الأفكار المتعلقة بالرؤيا الحالمة أكثر فجاجة من ذي قبل، ها هم نساء ورجال يتبادلون نظرات

مكشوفة ومتحررة تفسح المجال للكلمات المتوارية تحت طبقات من كلمات أخرى وأحداث أخرى.

كسهرة الأمس ونانا تتحنجل وتتمايع أمام الكل وتحاول لفت الأنظار كالعادة.

- وأنت مروح يا دوك؟

فيتلعثم د. عبد العظيم وهو ينظر ناحيتها وإلى نانا نظرات يشوبها الاشتهاء.

- أيوه أيوه أيوه أنا تحت أمرك، تحبي أروحك.

- أوكيه.

- معلش يا ثناء أصل نانا معهاش عربية، روحي أنت.

ويفر هاربًا........

تنظر ثناء نظرات مختلسة لنفسها في المرآة، ونظرات مختلسة أخرى لأجساد الآخرين والأخريات، يهولها بياضهم المفتقد للشمس والضوء والعفة، تضع يدها على صدرها المكشوف وتحاول أن تخفي عريها المفاجئ بصمت ثقيل تريد أن تغطي خزيها تحت ستار اللامبالاة المزيف، ولكن هيهات.

تنصت إلى جسدها النحيل تتأمله، لم تكن موسيقاه الناشزة في بعض مقاطعها تطربها دائمًا، وأمام المرآة تجد خيالاتها تتهشم في أحيان مؤلمة، موجعة، تدير لها الحياة المشتهاة ظهرها، ويرفضها الحب بكل قسوة.

تجر خيبة وحزن ومرارة وخذلان ومهانة وهزيمة ثقيلة، يهبط معها الجسد والروح في هوة الإحساس باللاجدوى واللاحياة.

وبيد مرتعشة تكتب ورقة أولها:

سيادة النائب العام.. أرجو أن تعتبرني (شاهد ملك) في هذه القضية.......

" لا أعلم يا سيدي إن كانت هذه صحوة ضمير، ولكن بعد حادثة العين السخنة المروعة.. لم أعد أحتمل أى رياء، لقد قمنا بتزوير الأوراق الخاصة، وعمل دمج ما بين شركة عبد العظيم وشركتنا، وشريكنا الخفي هو سيف باشا، وأوراق الاتهام المقدمة إليكم من قبل السيدة لولة: أوراق مزورة، نرجو التحقق منها.. ليثبت لكم حسن نيتي، ومع رسالتي شريط مسجل.

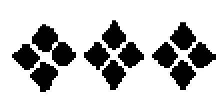
السيدة: ثناء

أسمع ترنيمة غروبها فهل تراها رحلت حقًا أم يظهر طيف منها في داخله قطعة من النور، يعتريني القلق وأنا أتخيل ما قد حدث.

تدخل ثناء إلى مكتب عبد العظيم، أحسن حاجة عملتها إنها طلعت نسخة من المفاتيح.

هو دائمًا يسهر يوم الخميس، تدخل على أطراف أصابعها، تفتح باب الجرسونيرة، تجد نورًا خافتًا وصوت ضحكة خليعة تعرف تمامًا صاحبتها، من فتحة الباب الموارب تنظر إليهم، وبكاميرا الموبايل تسجل لقطة بلقطة، والله لأفضحكم فضيحة لا على البال ولا على الخاطر.

وفي ظرف أصفر تضع السي دي، الذي أصبح يباع عند كل نوادي الفيديو.



يهـز الهـواء الســتائر، ومـن خلـف النافـذة تتجمـع السـحب وعندما تزداد رخات المطر تزداد رخـات قلبي، أهـي لهفـة عليـه، شوقٌ، خوفٌ، لا أدري؟

ولكنـه دائـم الترحـال والغيـاب والبعـد، دائـم الصـمت، قليـل الكـلام، ورغـم هـذا أشـعر أنـه بجـانبي، فـي محنتي، لا أعلـم كيف ينتابني هذا الشعور بأني فـي حمايته، يحيط بي.

وها هو يأسرني بكرمه ومروءته يشـدني إليـه وأجد بجانبـه ذلك الصفاء، تلك الطمأنينة وأسكن للعمر فـي هذا الجوار.

أزيح الستار برفق، لكم أحب أن أراه دون أن يرانـي، وأملـي عيني منـه، أتطلـع إليـه خلسـة، وأحيانًـا أسـافر علـى جناحيـه، أسبح فـي هذا الكون الفسيح.

وديع وداعة الأطفال، تلمع عيناه، يقترب بحذر، برفق، حتى يملأ فجوة الفـراغ، ينـكمش القلـق، وتكـون مسـاحة الحضـور بحجم مـكان الوجود، لكي يعتاد الأمان كنت أنثـر لـه حبـات الأرز والفريك، على حافة النافذة أنتظره؟

وسـأظل مهمـا طـال الـدهر أو قصـر.. أعلـم أنـه عائـد إليّ.. وكلما غاب سيعود إلى أحضان الدفء..

ومثل اليوم عندما يحاصرنى القلق وتطول أيام الغياب: غيابنا الذي ما عدت أحتمله.

أتطلع إلى السماء فتتبدد ساعات اللوعة:

"يا رب أشوفه"

في دفء شمس الربيع، يأتيني يرفرف من بعيد، معه رفيقة، رقيقة، ناعمة، بيضاء، حنونة، تغرد في الليل ويتناوبان الغناء، يخبؤها أحيانًا تحت جناحه، وأحيانًا يلتقط لها ما شاء من الحب، ويلقفها به اتخذا لهما عشًا في تجويف الحائط بالجوار، كنت أنصت إليهما أتونس بهما، وأطمئن..

بيننا حوار صامت، تشابه ربما، وانسجام ساكن يفتح باب الود "أجمل الكلام هو الذي لا يقال".

وأجمل العبارات هي التي نحتفظ بها في ذاكرة القلب، بيني وبينه لا توجد حواجز، أو ظلال، ما بيننا أقرب مما بين الحروف من مسافات، شعور رائع بالأمان، ولتلك الكلمة معان: الستر، ربما أحدها، الرحمة، المودة، مرادفها أيضًا..

أترك رأسي على كتفه أرتاح، يغمرني بالقبل، فأبتسم وأسخر منه، والأدهى أني كنت أستسلم له، أسند ظهري على ظهره، أغمض عيني لكي أراه..

يسكن ما بين جفوني، أتنهد، أقوم أمشي حافية القدمين، لكم أعشق البراح، ولكم إليه أحيانًا بل كثيرًا أشتاق..

وعندما ينقر زجاج النافذة، أجدني أرسم على سطح البلور.. "صورة قلبي"..

أفتح النافذة: أتطلع إلى السماء..

وأكرر نفس العبارة "يا رب" أعود إلى الأريكة.. وأفتح الكتاب مرة أخرى وحكاية أخرى.. كالمسحورة يختلط في آن واحد الواقع والخيال، وعندما تتطابق الصورة تتضح المفردات والمعاني.

لقد أنهكتني بعضًا من كلمات تجعلني أعود إلى نفسي، تجعلني أهيم، وكأنها صفحة من صفحات العمر، وكأني أنا التي كنت هناك، هل أنا هي؟

إنها قصته هو: وأحيانًا حين تتجلى الظلمة سيشرق النور.. يا رفيق القلب لا تتوقف ستغدو أنت النور.. أسرح مع تلك القصة: قصة "طائر النور" ص٨٨

.."أنت يا حبيبي طير على سفر..

وفي الأفق البعيد أكاد ألمحه، يعود بعد طول التيه في البحار، كلما هدأ الهواء يحط على الشط، وتختلط في رأسي الصور والأسئلة، أي شطوط تلك التي عليها وقف؟ أي رمال متحركة؟ وأي ريح أتت بك؟ ومن أي حدب؟؟ وأي مكر؟ وأي صد؟ أمن البشر قد يئست؟؟

في سماء النجوم كنت أجده يختال مثل القمر ويتخذ له مسارًا بين السحاب، فيتلألأ مثل حبات الماس في الليل، وفي نور النهار يفترش بلونه الأبيض السماء، يرحل صوب قرص الشمس، كأنه لؤلؤ يلمع ويضوي، وينعكس بريقه في الأرجاء، ومن شرفة قلبي أراه و أراك: تطل مثل البدر، مثله دائم الترحال.. والغياب.. والسفر.. يهفهف رداؤك في

الهواء، تقف بعيدًا واثقًا.. باسمًا تتطلع بعينيك إلى الفضاء.
أسدل ستائر الرؤيا على عجل، لا أريده أن يشعر كم أنا قريبة، وكم أتابع معه رؤياه في شغف الوصال بين البشر هو الذي يجعلنا لا نفترق، لا نحترق بلهيب الجفاء، ولكننا نختبئ.. نحتمي في بوتقة الصبر، يتابعه بعيونه كأنه بينه وبين طائر النور حوار لا ينقطع، وأصبح طيفه مجرد ظلال، رغم أن قلبه ما زال على الأرض يغلفه برقائق السحر، يستعين بمداد الروح.. يرسم لوحة للعلاء.. ويسطر حروفًا لكلمات من نور.. ترتعش لها خلجات قلبي في استحياء، يلف ويعود أدراجه، يلتف على شكل دائرة تشكل لوحة ساحرة، أي منهما الطير؟ أي منهما يحمل للآخر كل العزاء..؟ مشاعره أرق من رفيف أجنحة اليمام تتدفق في اتجاه النور مثل إشراقة الفجر، يشع من وجهه ضياء يزهو مثل لمعان خدود المحبين عند حلول الظلام، مثلما يعود الضوء بعد المطر أبهى، تلبس السماء حلتها في سنا الشمس أزهى، أجده يقف هو الآخر.. يستعد مبتسمًا ينتظر، أطل في عينيه محدقة.. ذاهلة مستسلمة، كم أود أن

أكون مثله أرى النور يحيط بالكون...

أرحل عن تلك الديار.. أسكن في واحات السكون والصمت.. يمتعني هدير الموج.. لمسة الرمل.. وينعش وجهي رذاذ الندي في الفجر.. أتنفس النقاء.. أرحل بعيدًا عن لغو البشر.. أنسى الجراح والآلام.. أجنح إلى ساحات العشق.. أنساهم.. أفرد كفوفي.. أغمض عيني.. أطير.. وأطير.. وأطير..

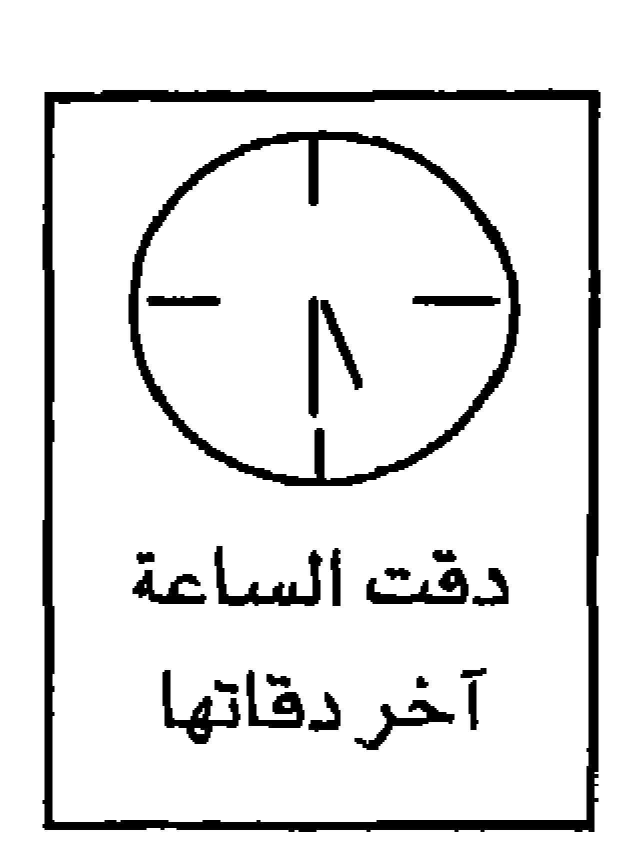

١٦/٢/٢٠٠٨

الفصل العاشر

عودة الرحيل

بعكس الريح لا يستطيع المرء أن يبحر بمركب شراعي
ولقد أبحرت....
وهاأنذا أعود مثقلة بالأصداء..
بوشوشات الودع

"منى عارف"



"من يحلق سيهبط يومًا في ميعاد لست أذكره، وكل يوم منذ ذلك الغروب أمشي علني ألقاها؟"

الأحلام المنسية.. تهب.. تنتفض.. تهجع من مراقدها.. وتصحو..

عيناي تحدقان في ذهول ما حدث لم يكن في الحسبان، يتوارى الخير خلف الشر مثلما تتوارى العتمة وراء الأغصان..

يشرق الصبح من الليل، وتظهر الظلال من خلف الكثبان، من شقوق الندم: تظهر علامات الأسى، والأسف، ترسم ثناء خطابها الأخير بعد أن تكون قد تجرعت لطمة أخرى، وتصلها ورقة الطلاق الثالثة، ويلوك الناس سمعتها وغطرستها..

كالبرق تتفجر الحقيقة عارية، من حدقات العيون أراها تتخلل حدقتي: الذكريات، الظنون، اللعنات مثل الدخان تمر السحابة السوداء، تتفرع بسعة الأفق..

فيثقل قلبي رغم كل شيء بفقدها هي الأخرى، دائمة القلق والتوتر وكانت تأخذ حبتين من علبة المهدئ قبل أي اجتماع أو حفلة، هذه المرة لم تحتمل صدمة ترك عبد العظيم لها فجأة وابتعاده هو الآخر عنها، فشلها، وقوعها في الخطأ مرة تلو الأخرى، يختل اتزانها، ويغافل نعاسها؛ رائحة الغدر العفنة، ولا يتحمل قلبها الجرعة الزائدة..

لا تترك وراءها سوى غياب خفي متربص لكل منا، قد يأتينا ذات مرة ونحن تحت الأغطية الدافئة، وقد يهاجمنا ويأخذنا من أحبائنا من خلف تلك الجدران المحصنة يفاجئنا بدقته المتناهية، كيف تعود لي مرة أخرى الثقة، التي كانت بالأمس!! كيف تصبح منتصرًا في معركة خاسرة؟!

كيف نطير إلى ما وراء البحار.. بعيدًا عن كل الأقنعة الزائفة؟

تلجم الفضيحة الكبرى الكل، يحاول عبد العظيم أن يبتز المسئولين وكل من كان على علاقة به بشكل أو بآخر لكي يخرج من هذه الورطة، أصدقاؤه الصحفيون ومعاونيه في كل الجهات الحكومية والإدارات المالية والمجلس الأعلى...، وبعض رجال الأحزاب وكبار المسئولين (يا ريت كانوا بس يفتكروا) ولا طلعوا زي القطط يأكلون وينسون، الساعات الرولكس والسبائك الذهبية والعربيات البي أم وغيرها وغيرها ولا الإجازات التي كانوا يحصلون عليها مقابل التسهيلات في الغردقة وشرم الشيخ بالأسبوع وفول بورد كمان ولا الفيلات التي يصل إيجارها في اليوم الواحد في مارينا إلى أكثر من عشرة آلاف جنيه.

أعطاه الكل ظهره وبدأ في الثرثرة والكلام والهياج، ولجأ أخيرًا إلى سيف سليمان بعد أن تهرب منه الأخير عدة مرات:

- دول يا باشا ناوين لي على نية مش كويسة.

وبصوت متحشرج يشوبه الذل يطلب منه أن يهربه في إحدى المراكب إلى الخارج، مثلما ساعد غيره كثرين من نواب القروض.

- دول يا باشا محاصريني في كل حتة، ويمكن يكون معاهم أمر تفتيش للبيت أو للمكتب، ده إحنا كلنا حنروح في داهية.

سيف: اقفل الخط دلوقتي أنا راح أتصرف.

وباليد الأخرى يشكل رقم آخر وهو يتمتم لا يا روح أمك أنت حتروح لوحدك.

وتفتح لولة فمها مذهولة وهي تقرأ مانشيت صفحة الحوادث:

حادثة سرقة بشعة في فيلا بجاردن سيتي، راح ضحيتها المستشار الأسبق/ عبد العظيم النشرتي وتم العثور على جثته بالبدروم بعد أن قام الجناة بتمزيقها أربًا وتشويه وجهه بشكل بشع.

يرن جرس التليفون، يأتيني صوت لولة تلجمني المفاجأة، ولا أدعي أني ما كنت أتمناها أو انتظرها.

لولة: أميرة أرجوكي استمعي لي مرة واحدة، لقد لعب بي أنا الأخرى، وراء الحكاية أناس آخرون وأخريات لا يخطرون على بالك آذوني أنا أيضًا، وأنا حقيقة آسف لما حدث معكي ومع زوجك، سأكشف أوراقهم أنا الأخرى، الله يرحم عبدالعظيم راح في شربة ميه، احذري وخلي بالك.

أميرة: أنا مصدقاكي يا لولة، ربنا يسامحنا جميعًا.

أما آخر الأخبار: تقوم النيابة بالتحقيق مع نانا، ويقوم زوجها بضربها في الطريق العام، مما يجعلها تلجأ إلى ارتداء النقاب حتى لا يعرفها الناس، وخاصة بعد أن تم نشر صورها في الفيس بوك.

يذهب صفوت لقضاء فريضة الحج وبصحبته زوجته جميلة، ويخرج من أزمة التحقيقات بأقل شوشرة ممكنة لعدم كفاية الأدلة ضده في موضوع التخصيص وأراضي الدولة.

كله تمام يا فندم، ملف التجاوزات في قضايا الرشوة والفساد يغلق، ويتم توجيه بعض الاتهامات إلى كل من السيدة ليلى والسيدة نشوى، ولا يعاود أحد ذكر اسمي بالمرة، أتثاءب وأتحرك بهدوء أشاهد المشهد التاسع للفيلم:

الأحداث في الفيلم تمر متثاقلة، تتعثر في رقة متناهية.

الجواد لا يريد أن يتقدم.. أو يبرح مكانه للحظة.. كأنه تجمد في تلك اللحظة.. على أثر تجمد أطرافها.

- كيف حالك..

- بخير..

- أراكِ.. وأرى ابنتنا في خير حال.. لم أرها أبدًا بمثل تلك السعادة و(بيوتي) ألم يشف هو؟ ألم يحن بعد وقت عودتكم ورحيلنا..

- غدًا هو يوم التجربة؟!!

تجارب تصقلنا.. وتجارب أخرى تجردنا من الحلم الأول.. وتصبح رتابة تكرار المحاولة ما هي إلا...

رنين الهاتف يقطع المشاهدة.. وأفاجأ بصوت زوجي آسفًا نادمًا:

- لقد اتصل بي النائب العام، وسيعرض ملف التزوير غدًا.

تم إيقاف نانا في مطار القاهرة وهي تحاول الهرب.

أما بقى الباشا الكبير سيف سليمان شافوه إمبارح في لندن بيتمشى مع بقية الحبايب في شارع إكسفورد بيوزع ابتسامات شمال ويمين، ويمكن كمان تلاقيه راح يسجل في البرنامج الشهير "القاهرة اليوم".

أميرة: وماحدش جاب سيرة المشروع الكبير.

الزوج: لا طبعًا يا أميرة.. الكلام ده خارج التحقيق.

أميرة: يعني حيحل محل الشلة ناس تانيين، وجوه أخرى تحمل أسماء أخرى، هدفها واضح إبعاد المصريين عن الدخول في معترك الصناعة الحديثة عن طريق تطوير تكنولوجيا النووي.

الزوج: أنتِ لسة بتتكلمي في الموضوع ده، وبعدين مش ناوية تجيبيها البر أبدًا.

وتعلو نبرات صوته. وتغلق السماعة، وتغلق الباب الموارب إلى الأبد.

الصداع النصفي لا يفارقها.

الليلة دي كل الأحبة زاروها، هام معاهم قلبها وحكايات الودع تداعب سهد الليل، يا وجه الحكايات المحتضرة في غرة الفجر أريد قدرًا من الهدوء لا مزايدة ومزيدًا من الخطوات البائسة.

وها هي يلوح لها طيفها يأتي يزورها زيارته الأخيرة، تتذكر كلماتها في لحظات الوداع.

"فيه خطوة قدامك لازم تعديها..."

نقطة سوداء، حتطلعي رحلة، وترجعي تكرريها، قدامك هدية، راح تحققلك أمنياتك، وتثبت أوضاعك، لحسن حظك إنك

تملكين قدرة على السباحة في كل التيارات وتستطيعين أن تتخلصي من كل وضع شائك أو معقد.. إنها سنة المشاريع الواعدة...

وقد تأتيك مفاجأة، تسبب لك كل الدهشة.

كلنا في لحظةٍ ما.. نفكر في ذلك المنعطف كيف منه سوف نعترج؟

كيف ننهض من الكبوة.. من العثرة.. ننطلق.. نتوازن..

ومنك ومهما ابتعدت أجدني أقترب.. يا ليتني ما زلت تلك الطفلة تتقافز في عيني الفرحة كلما أراك أنطلق.. وأعماقي تضج بتلك النشوة.. بتلك الغبطة الفجائية.. كأني في حضن ذلك الذي فارقني إلى الأبد..

بل في داخلي كنت دائمًا أنت الذي بدمائي يختلج..

أتوتر من الغياب.. وأتخيل نفسي في ذلك الأمس البعيد.. وأنا أجري وأهرع إلى دفء منزل العائلة وسط الأهل والخلان.. أتدثر بمعطفي الصوف كأنه كان يحميني من البشر..

أحكم الكوفية على رقبتي.. أتأمل أمواج البحر تتعالى كالجبال.. أتفادى الرذاذ.. مثل تلك الأيام التي كنا نتجمع فيها أيام الجمعة.. والشمس تغمر بيتنا.. يوم الجمعة يعني إجازة نهرب فيها من همومنا اليومية.. كان ذلك من الطقوس شبه الدائمة..

نذهب جميعًا إلى الغذاء مهما اختلفت بنا دروب الحياة ومشاغلها نجتمع سويًا.. نتلاقى بعد ما هان اللقاء في البيت الكبير.. وكنت أصل دائمًا على غير العادة في سابقة غير مشهود عليها بدري حبتين وبدلاً من الدخول إلى المطبخ حيث

تفوح رائحة الشواء.. أذهب مباشرة إلى حجرة المكتب أسلي نفسي بمطالعة الكتب وأتظاهر يعني كده وكده بترتيب أرفف المكتبة.

هل ما زالت الأغلفة تنتظر أن أطالعها وتطالعني بألوانها الجذابة وصورها المؤثرة أسماء محببة.. صديقة.. أليفة طالما جلست معي تشاركني أسرارها.. وتبوح بها.. سامرتها ليالي وسامرتني.. أوفى الأصدقاء.. جئتك ألبي النداء!!

هل سأعود إلى تلك الطفلة إلى يقين الخطوة؟ إذا عدتم عدنا حتى ولو بعد حين. وها هو النعاس أخيرًا يداعبني تثقل جفوني وتزغلل عيني الستارة البيضاء وهي تتراقص بفضل نسمة هواء بحري في حجرة الجلوس أمدد رجلي... واسترخي...

فأذهب في تعسيلة محببة بل وتبحر الأفكار بعيدًا إلى........

كأني كنت في حلم مجنون.. أتخيل نفسي فيه.. وأقص عليكم ما جرى لتلك الروح الهائمة، كيف أنست فكرة الترحال وأخط بأصابعي على صفحه الكتاب البيضاء مساري الأخير، صرت أنا وهو شيئًا واحدًا.

(المركب المسكون راح يعدي بينا بحار.. يحكي عن أسرار الكون شكل الموجه في الغيوم.. صوت السكون.. وأيام عشقنا.. كنت معاي فيه.. ولا كنت لوحدي أنا..)

أخذت أخيرًا أحسن قرار.. الإبحار بعيدًا.

سأبحر بعيدًا.. شرقًا.. غربًا.. لن ألتزم ببوصلة أو خريطة يحملني الموج كيفما يحلو له على صفحته.. يوجه الهواء الساري.. يشق عنان البحار.

أدمن قلبي الغياب.. تعودت أن أسافر في مرافئ الدموع.. حتى عندما تتهاوى القلاع، لا آبه للعواصف.. للمخاطر.. لأجراس الإنذار..

وكلما اقتربت من فنار.. ولاح لي في البعد شط أو أرض عمار.. أزيد من سرعتي، تتحرك دفتي لن أركن إلى خلجان الغدر، إني أبحث عن واحة أمان، زادي في قدرتي على الاستمرار... احتمال الأسفار "مسافر زاده الخيال"

انتظر في الفجر خيوط النور.. وهي تملأ السماء.. أودع في الغروب الشمس.. وهي تخبو في كبرياء، وعندما يعلو صوت الريح.. وينهمر المطر شلالاً.. ويسجلونني على لائحة المفقودين.. مركب ضائع..!!

أتعلم من الفقد الرغبة في البقاء صراعًا من أجل الغد ثائرًا على القهر.

أغسل ألف مرة لكي أعود إلى بداية البداية، أتشدق بالنقاء تحت أشعة القمر.. أرقص فوق الماء، فأنا "كماء البحر في مدي وفي جذري وعمق تحولاتي"

هكذا رسم لي قدري حياتي.. إبحار ضد التيار، تعلمت من السفر والترحال أن العيون تتشابه، وأن الوجوه تتقابل، والذي يتغير هو الأسماء.

إذا أحببت أن تراني.. وتشق العتمة إلى الضياء.. فلي شراعان بلون الثلج وطعم الملح أظهر في الأفق البعيد عند مرمى النظر.. ألوح براياتي البيضاء..

عندما يتلون الماء بزرقة السماء.. أرمي الهلب.. واستقر.. بعيدًا.. وحيدًا، وحينما تسطع شمس الأمل، وتدفئ بنورها برودة الشتاء، تظهر أطياف الضوء، هناك.. سوف ألقي رحالي وما حملته في رحلة العشق عبر الموانئ والمحطات.

حفنة من صدف البحر.. ياقوتة حمراء.. خرزة زرقاء.. قطعة من المرجان.. لؤلؤ مسحور.. رسالة في بلور.. ودع يشكو من الأعماق.. بعض ذكريات.. ندم.. وأشواق أطلال شجن.. وأشلاء رفات.

لثوانٍ معدودة أغفو في تلك الليلة الطويلة، أرتعش أحاول أن أفيق فأجد في شبه الحلم لذة أخرى، وفي قصة كتاب وشوشات الودع أجدها حكاية سفينة الشراع البيضاء ص١٠٠:

تتراقص صورة تلك السفينة.. سفينة الشراع البيضاء.

أنساب معها على صفحة المياه الزرقاء.. تحملني ربما إليه!!

تتداخل الأزمنة ببعضها، والأمكنة، فلا أعرف من أين ولا أعرف إلى أين.

كما يقول نزار: "العاشق هو الذي يرمي نفسه في بحر العشق بلا بوصلة ولا خريطة، مثل تلك السفينة التي تتراقص في مقلتي وأجدني أنساب معها".

أحلم معك بسفينة.. كأننا نملك مصباح علاء الدين، نسأل عن مدن نحبها.. أماكن كان لنا فيها ذكريات.. أسرار.. وحنين.. بقايا ملامح تشبهك وتظهر لي هكذا فجأة تداعبني في أحلامي:

.."بعينك يلعب طفل جميل.. يسمونه في بلادي القمر

أسافر.. أدخل غابةً من الشموع فيتبعني حين أمشي الشجر، كلمات نزار تتراقص مع إيقاعاتها صورة سفينة الشراع البيضاء، وأتذكرك مثل ذلك اليوم وقد عقدت لساني الدهشة، أفيق من قيلولة العصر على صوت أختي وهي تنهر ابنها: إياك واللعب بالماء مرةً ثانية، وجاءني مستنجدا يخفي وراء ظهره مركبًا ورقيًا كنت صنعته له منذ قليل، تتقابل عيوننا.. أرمقه.. وأرمقها في حنو.. أضع إصبعي على شفتي وآخذه من يده.. أتسلل معه على أطراف أقدامنا: تملأ الحوض لحافته بالماء.. لساعات وساعات ما عدت أتذكر عددها.. وفي أي حقبة من الزمان، نختزن أحيانًا أشياءً داخلنا وأحيانًا ننساها، حتى تطفو على السطح فجأة.. تداعبنا.. تأخذنا معها ثانيةً إلى تلك اللحظة، ولقد أهداني إياها في ساعة صفا صورة في برواز قديم لا زلت أحتفظ بها، وفي داخل رواق القلب أقفلت عليها.. أتعجبك؟ فأومئ برأسي فيخلعها من مكانها، ويبدأ في تغليفها بورق الزبدة، فأندهش..

أخجل.. أحتار.. أتلعثم في الكلام، ولا يسعني الرد.. أرفض على استحياء، فيصر أن يعطيني إياها، يهدر قلبي في صدري مثل الموج..

سفينة الشراع البيضاء..!! تشق مياه البحر الزرقاء، تحملنا إلى شاطئ أحلامنا هناك، بل وإلى كل مكان ذهبنا إليه في رحلة السرد، كأني عشت حياة أخرى، بل قل عشت اثنتين، يهدهد أمانينا صوت الأمواج، لم نكن بحاجة إلى خريطة أو بوصلة تحدد اتجاه الريح، ترتفع أعلامنا إلى السماء، أجدني أرحل معها، أتابعها وأتبعها ترحل حده اليوم الأفكار.

كان يتفنن في إضحاكي وإسعادي مثل الأطفال، كأن المرح يغسل الأحزان، ليقتلع مني ضحكة تجلجل في كل الأنحاء، وعلمني مع ما علمني إياه حُب البحر والترحال.

أجازف بقاربي الصغير في مهب الريح، وأتصدى بمجدافي القصير للأمواج العالية، لا يهمني ليل.. برد.. عاصفة هوجاء.. قيظ.. صيف.. شتاء. لا أهدأ.. لا أقف.. لا أكل من الاجتهاد، ألهمني تلك المقدرة على

المواصلة.. لا استسلام.. لا أحط أحمالي على أول شط..
ولا أركن لأحد.. ولا أخفض راية السفينة، المهارة
والشطارة أن تتصدر الصفوف إلى الأمام، والغاية هي
البقاء، أغطس تارة.. أطفو ثانيةً على السطح، أحاذر من
الدوامات التي تشدني إلى أسفل القاع، سجل العقل
عباراته "أنصاف البشر لا يجيدون فن العوم.. وليست
هناك أطواق نجاة"

أفيق على صوت تدفق المياه من الصنبور وضحكة طفل
وطفلة في ليلة صيف.. وقد غمرت المياه ملابسهما..

كالخارجة للتو من بيات شتوي طويل.. ما زلت قابعة في نفس المكان بعد أن نزحت الروح تسابق كل الجهات.. يهمس ظلي لملامح بعيدة.. هؤلاء الغرقى الذين ابتلعتهم الأعماق، أصدقائي وحتى من لا أعرفهم، شهداء عبارة السلام، بأي قلوب نبكي وبأي عيون ندمع، في بلد تتعثر أشلاؤه على قارعة طرق الموت السريعة، وفوق قضبان السكك الحديدية، وتحت ركام العمارات المنهارة كعلب البسكوت، وداخل محرقة بني سويف، غيرهم وغيرهم تتراقص أمامي صور الأمس.

حين جاء صوتها الرخيم: سوف تنجين...

صوت يقين العرافة التي تهدي من حولها دهشةً وانتباهًا، كانت كأنها معي، تحكي أساطير غامضة عن حوريات

البحر، التي تدعي أني منها ثم تمضي، تعود من حيث أتت تحصي كم نهارًا مضى، وآخر لم يأت بعد، يحاصرها ارتباك شائك وبعض حرج، تصبح ستوتة ظلاً بلا أثر..

وأصبح أنا مثل غابرييل جارسيا ماركيز:

"أعيش لأحكي"

وأتحول مثل أليس في بلاد العجائب.. أعيش حكاية أغرب منها.. أسرد آخر لقطة قبل أن أغلق الصفحة وقد قارب الفيلم على الانتهاء وكذلك علبة "الكلينكس" التي بجانبي...

وأتابع المشهد العاشر للفيلم:

تركت البطلة عملها كرئيسة لإحدى مجلات الموضة وبدأت تعتاد حياة الريف وركوب الحصان والتواجد بجانبه.. تماثلت الابنة للشفاء..

وفي المشهد الأخير: يتابع الكل.. لحظة وقوف الحصان على أقدامه هو الآخر: يمسك "روبرت ريدفورت" بالحبل ويعقد عدة عقد ثم يقترب منه ببطء حتى يبدأ الحصان (Beauty) في الاقتراب تاركًا حذره القديم ومخاوفه الكامنة.. تمر الدقائق والثوان كل ما مر تمحوه الأيام أو تكاد..

ألا يُضمد الجروح الحنان؟

تبقى أمامهم لحظة حاسمة.. نقطة فارقة.. يفاجئها قرار الزوج "إن أحببت العودة هناك شروطٌ أخرى".

لحظة الاختيار كانت أصعب لحظة.. العربة تنتظرها للرحيل وقد وضعت فيها كل حقائبها.. يسبقها الزوج والابنة.. أما هو

فيبتعد عن تلك اللحظة..

تنتظره.. اليقين.. الشك.. مشاعر متضاربة..

- هل تسمح بركوبة أخيرة معك..

فيعد الجواد بأيدي واجفة.

فإذا بها تدير محرك عربتها وترحل...

يتابعها من أعلى الجبل... وينتهي الفيلم...

للبرق والرعد والأمطار.. وقع عميق..

وأجدني أطالع تلك السطور الأخيرة بكل شغف بل أبثها مناجاتي، وتطالعنى قصة النوة اكتب بمداد الريح.. بعيدًا عن غدر الأزمنة.. شكل سواحلي.. حدود جوانحي..

هل أبقي هناك..؟! أم أعود يومًا منها أنا..؟!!

.. أظلم الكون فجأة.. زادت سرعة الريح.. انهمر المطر شلالاً، أو تدري جعلتني المفاجأة أفقد اتزاني وكاد ينقلب الصاري بغير رجعة، وكادت المركب أن تصطدم بالصخور، وللحظات خلت أنها النهاية، تيار يجرفني، يقتلعني مثل الإعصار، أدرت الدفة بكل ما أوتيت من قوة، صرت أترنح.. أتأرجح.. أرتجف مثل قشة في مهب الريح، والأمواج العاتية تتناوب علىّ الواحدة تلو الأخرى.. هرج ومرج.. اصطخاب البحر وهياجه جعله

يبتلع كل الأشياء: أشرعة المراكب، صفارات البواخر، نداءات صيادي السمك، استجداء الأنامل، حتى صراخ البشر ومخاوفهم وخاصة الذين لم يعتادوا ركوب البحر، وعاصروا برد شتائه اللاذع، كل من ضاعوا بأعماق المحيطات دهورًا، لوهلة يسخر منا.. يساومنا.. يخنق الأشواق.. يشطرنا.. يخدعنا.. يحمل بعيدًا دمع الفراق.

تتخبط الأحلام في صدري، وفي يأس تثور ضربات القدر تقوينا.. تختبرنا.. ونختبر بها أنفسنا، تقودنا إما إلى عثرة.. أو إلى نجاة.. تحي فينا أمانينا.. تشجعنا أيضًا على البقاء.. تصقلنا "حب الحياة لا يضاهيه حب آخر..

أثبت الصاري، أستمر.. أقاوم.. أعلو.. وأهبط.. أشكو إلى البحر اضطراب خواطري: "فيجيبني برياحه الهوجاء.." ألمح من خلال الموج طاقة من النور: تتجلي.. تتضح.. تتسع.. أولى ظهري إلى الغرب، أرحل صوبها، القلاع ترتفع مرة أخرى، تعتدل، التمس النجاة والفرار، ألتمس برًّا لا ريب فيه ولا حدود ولا سدود، أرضًا لا تعاندني، لا أهرب فيها من ظلي، ولا أفر بين الحين والحين، يهدهدني

الهـواء، تـلال السـحب السـوداء تنسـحب الواحـدة تلـو الأخرى، هل حقيقة زالت الغمة، لقد اشـتهيت أن أرسـو عند التقاء قوس البحر والسماء، أعانق الحنـين والـذكريات أمد حبال الشوق والأمل إلى بقعة ضوء تدفق.

تتلاشى أصوات العاصفة.. أو تكاد، أسمع صدى رقرقـة الماء عذبًا منسابًا يعود الدفء إلى أطرافي المتجمـدة، أرفـع الراية البيضاء، هـدأ غضـب الـريح.. اسـتكان، وجـدت نفسي أهنئ نفسي على بقايا الزبد، وبقايا رغـوة الخلجـان، ساعات نسيت فيها معنى الأمان، ونسيت أن أرتـاح يومًـا في مكان، وتعانقت في مقلتي دمعتان، الشمس هناك تسدل خمارها، والأفق يتلون بألوان شتى.. هل حقًا عدنا؟؟ هـل كل ما كان.. كان..؟؟..

أغلق الكتاب: ويبقي معلقًا في ذهني نفس السؤال...

هل حقًا عدنا؟ هل كل ما كان.. كان؟

أحول على قناة أوربت، يطالعني خبر الحادثة التي أكملت على بقية الأحزان:

استيقظت مصر على صوت انهيار صخرة ضخمة من صخور جبل المقطم فوق مئات المنازل فسوتها بالأرض ودفن السكان تحت الأنقاض..

تتعاقب صور منظر سقوط مئات الأطنان من جبل المقطم فوق العشوائيات وعويل وصراخ آلاف الأبرياء، قلة الحيلة ومحاولة البسطاء لإخراج الأحياء، عجز الحكومة، تفشي السواد، يسقط في يدي فمضيت إلى الشرفة، أحاول ألا أختنق.. أجده ما زال هنا يصغي لي بكل اهتمام.. أحمله في يدي.. أقربه من أذني: أهناك ما لم يقال بعد!!.. يوشوشني.. يسقط في يدي.. أقترب من حافة السياج بحذر.. تطالعني زمجرة الريح، غضب البحر أأرجحه، وبأقصى قوة في جوف الموج بين الصخور هناك ألقيه.

تمت


٢٧/١٢/٢٠٠٨

أغنيات سردية عاشقة لمنى عارف

د. السعيد الورقي

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

تتابع منى عارف في وشوشات الودع عالمها الساحر السحري الذي يتحد فيه الوجود في أنشودة رومانسية معجونة بالعشق ومنفتحة على الحياة بكل ما فيها من رغبة وحب وآلام.

رغم كل الظروف التي أحاطت بالحالة الإنسانية لهذا العمل، يظل العالم الذي تقدمة منى عارف هو كون الله بأرضه ومائه وفضائه، هو الحياة كما خلقها الله وأرادها، لا كما صنعها الإنسان.

إن كل نصوص الكتاب غناء عاشق لهذا الكون بما فيه الإنسان الذي استخلفه الله على هذا الكون، وأراد منه أن يحب الحياة وأن يعشق كل ما فيها بكل طاقته وأن يكون أمينا عليها.

هكذا يحيا الإنسان في النصوص الإبداعية التي قدمتها منى عارف من قبل ولا تزال تقدمها هنا في وشوشات الودع.

والكاتبة معنية بالدرجة الأولى بهذا الإنسان الذي يمارس الحياة وفقًا متواصلاً من المشاعر الفطرية الصادقة التي

تنعكس بدورها على كل ما في الوجود من طيور وأصداف وشـواطئ ومياه وأسماك وزهور، بل ومنازل تعمرها الحياة فتجعل من الجدران والأثاث والنوافذ والستائر وآنية الزهور عالمًا سحريًا عاشقًا معشوقًا في الوقت نفسه.

وعندما أرادت منى عارف أن تقدم هذا العالم الساحر السحري اختارت نصًا أدبيًا مراوغًا.

لقد اختارت منى عارف أن تقدم عالمها من خلال نصية أدبية جديدة تستوعب حوارات الذات وحوارات الوجدان وحوارات الكون، فكانت هذه الرواية البديعة التي تجمع بين الخاطرة والصورة والسرد والشاعرية في بنية متوازنة تمكنت فيها من توظيف أساليب الأداء في هذه الفنون المختلفة بمهارة جعلت لنصها الأدبي استقلالية أداء من ناحية كما وفرت له إمكانيات صيغة أدبية فنية من ناحية أخرى، يستطيع القارئ أن يتمهل عندها مستمتعا بما تطرحه من مواقف فنية جمالية ومستمتعا بما وفرته الكاتبة من جماليات الصياغة والأداء.

واعتقد أن منى عارف بما قدمته اليوم في وشوشات الودع لنا نصًا أدبيًا جديدًا يمثل إشكالية بحثية أمام دارسي الأدب المعاصر ونقاده.

المؤلفة

منى عارف

- مواليد الإسكندرية.
- ليسانس آداب قسم اللغة الفرنسية كلية الآداب – جامعة الإسكندرية.

◆ الرصيد الأدبي:

- ليالي القمر، ٢٠٠١.
- أطواق الياسمين، ٢٠٠٣.
- روائح الزمن الجميل، ٢٠٠٦.
- لها عدة مقالات سياسية واجتماعية نشرت في كل من جريدة الوفد، نهضة مصر، وصوت الأمة والجماهير.
- حصلت هذا العام (٢٠٠٨) على جائزة "صلاح هلال" في القصة القصيرة (المركز الثالث) بقصتها "سفينة الشراع البيضاء".
- تم مناقشة أعمالها في البرنامج العام، وفي الكثير من المنتديات الثقافية، كما تم تحويل مجموعة روائح الزمن الجميل، وقصة الياقوتة الحمراء إلى أعمال درامية ومسلسلات بالإذاعة.
- أفرد لأعمال الكاتبة عددا كبير من الدراسات النقدية في كل من:
- مجلة القصة العدد ١١٢ يونيو ٢٠٠٧.

- مجلة الثقافة الجديدة العدد ١٩٨ يناير ٢٠٠٧.
- مجلة مبدعون ٢٠٠٨.
- مجلة نصف الدنيا عدد ٨٨٣ فبراير ٢٠٠٧.
- مجلة حريتي عدد ٨٤١ يوليو ٢٠٠٦.
- نشرت لها أخبار الأدب عدد من القصص المتميزة تحت عنوان: "هوداء الذكريات".
- وكذلك مجلة الكلمة المعاصرة – التي تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة – يونيو ٢٠٠٨.

للتواصل مع الكاتبة

البريد الإلكتروني : mona.aref@hotmail.com

فهرس

من قائمة الإصدارات "رواية – قصة"

ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
وراء السراب قليلا	إبراهيم درغوثي
حمدان طليقًا	أحمد عمر شاهين
ملاعيب الأكابر	أحمد الشيخ
وقائع غرق السفينة	إدريس على
طريق النسر	إدوار الخراط
صخور السماء	إدوار الخراط
صيد الحضرمية	أمير تاج السر
مطرية الغروب	جمال الغيطانى
تكوينات الدم والتراب/الخروج عن النص	د. جمال التلاوى
رفيف الترائب	خالد الأنشاصى
كيد النسا	خيرى عبد الجواد
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
آخر ما قاله النهر	عز الدين الأسوانى
إينارو	د. على فهمى خشيم
ولا يزال المعطف معلقًا	على مصطفى المصراتى
جنية الشفق (قصص شاعرية قصيرة جدًا)	د. فاروق أوهان
تاء مربوطة	فاطمة يوسف العلى
الحمامة البرية	فؤاد قنديل
فنار الأخوين	فوزية مهران
هالة النور	محمد العشرى
تحت المجهر(رواية من الخيال العلمى)	نهاد شريف
أنت وحدك السماء	هيام عبد الهادى
امرأة بين الرجال	وفية خيري

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية؛ رواية.. قصة.. دراسات ونقد وكتب متنوعة: سياسية، قومية، دينية، معارف عامة، تراث، أطفال.
خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة في الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز



منى عارف

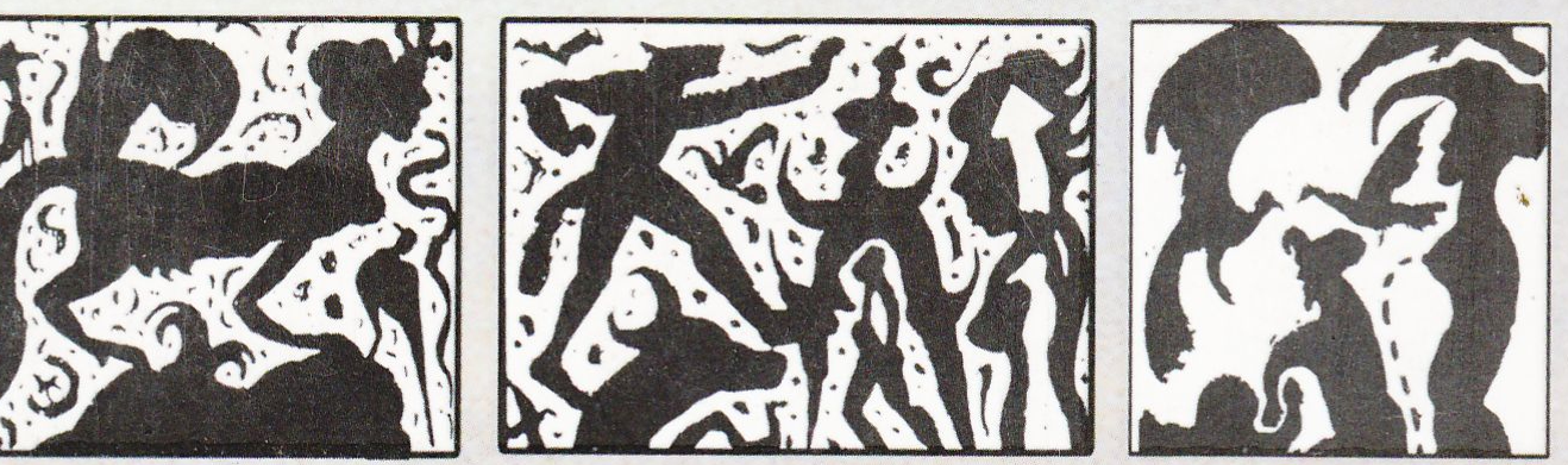
امرأة تكتب بأصابع قلبها ومداد روحها، ترقص على إيقاعات هامسة، وتنصت إلى رعشة لهاث صدرها.. بعذاب الآخرين الذين فقدوا الأمس واليوم، ويعيشون الذهول أمام غدٍ مصادر.

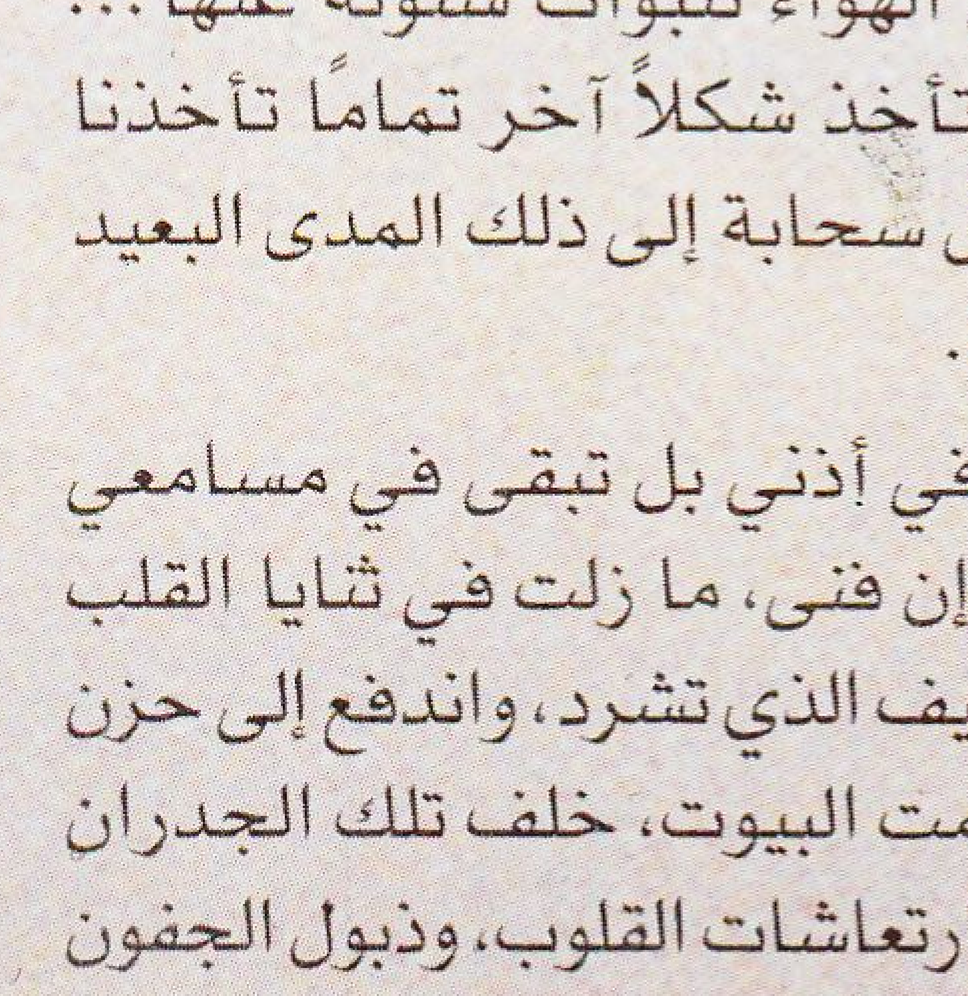
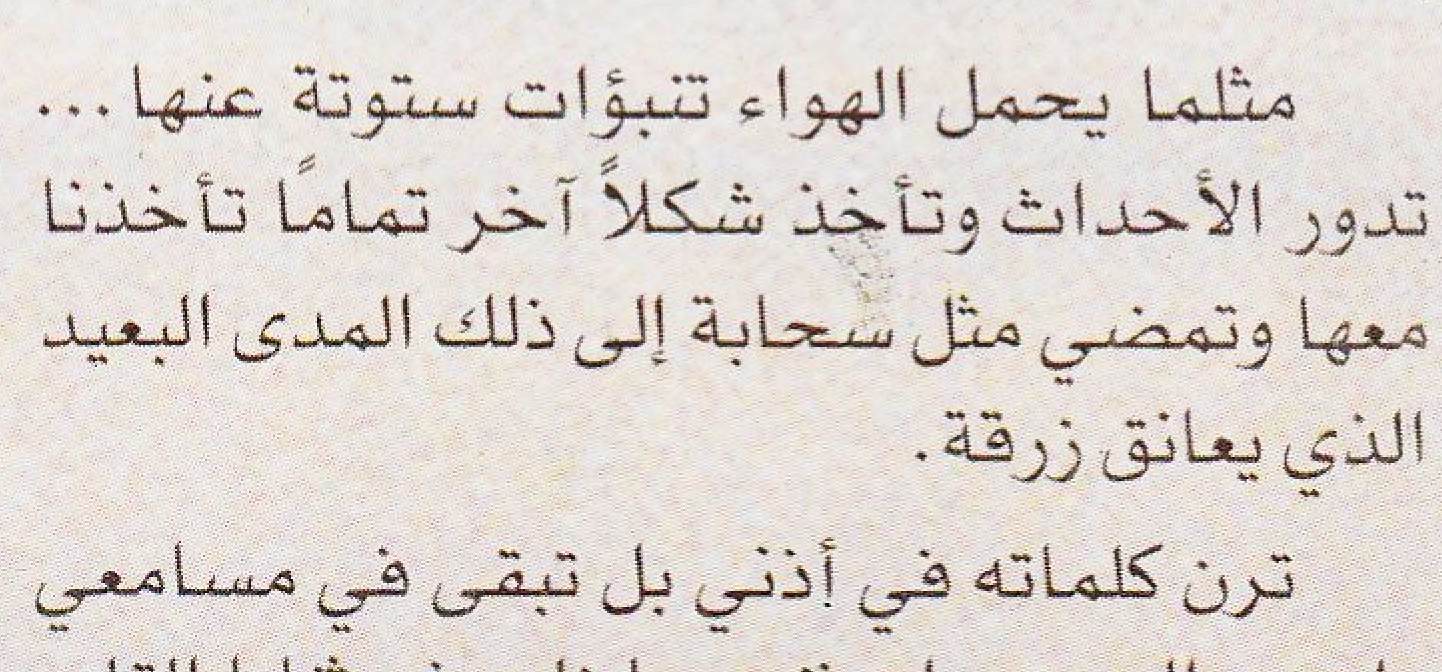
امرأة تلون بالحلم مساحة مشروعة للاختيار واستفتاء الرغبات غير المعلنة تعبر عن الحالة بأناقة فراشة للصمت لا تحجب الألم.

هي العاشقة تعبر الحلم تتلفعه غلالة من سحر يحميها من موبقات عالم متوحش.

غريب عسقلان
غزة / فلسطين





مثلما يحمل الهواء تنبؤات ستوتة عنها... تدور الأحداث وتأخذ شكلاً آخر تماماً تأخذنا معها وتمضي مثل سحابة إلى ذلك المدى البعيد الذي يعانق زرقة.

ترن كلماته في أذني بل تبقى في مسامعي وإن مر الوجود وإن فنى، ما زلت في ثنايا القلب أحتفظ بذلك الطيف الذي تشرد، واندفع إلى حزن الجسور، إلى صمت البيوت، خلف تلك الجدران التي أسرت عنها ارتعاشات القلوب، وذبول الجفون التي يلبس الزيف من ورائها صورة الحقيقة وتتفنن في تبديلها بل أحياناً تخفيها كما أخفت الجدران أشياءً أخرى جاء وقتها وسأحكي بكل جرأة عنها:

كأننا في عالمٍ آخر؟ هل يصدق أحد أن هذا في داخل مصر؟

